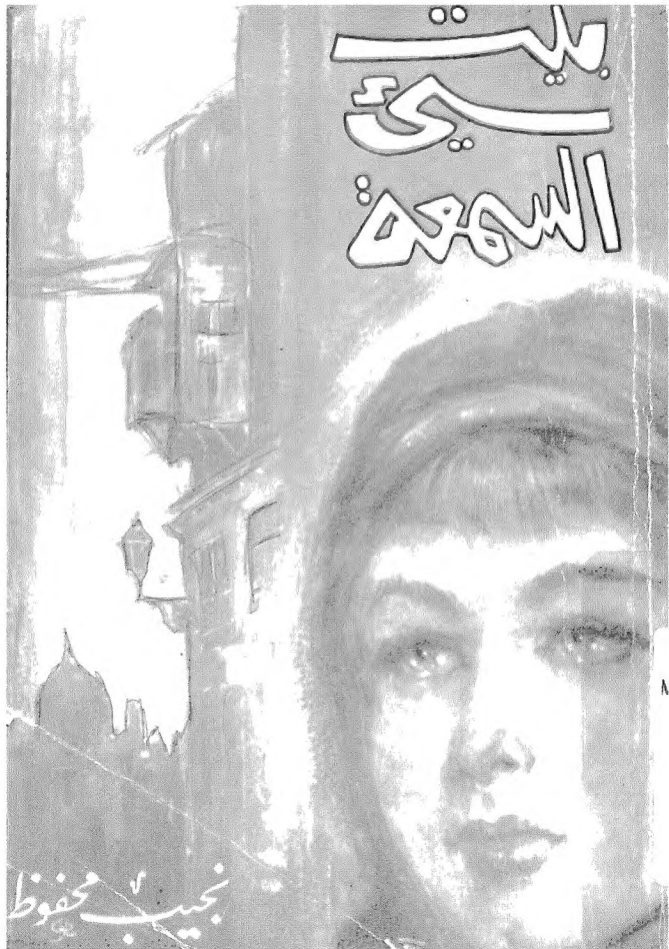


بستان الشيخ السميع

نجيب محفوظ



مطبوعات مكتبة الزهر

بيت سري السمتة

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر: مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الغزالة"

سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

قبيل الرحيل

لم تبق الا أيام معدودة قبيل الرحيل • لذلك بدت الاسكندرية لطيفة جذابة كما ينبغي لها قبيل الرحيل • وهو لا يدري متى يراها مرة أخرى اذ أنه يمضى عطلته عادة عند الأهل في الريف ولذلك فالذي كان موطننا للوحشة والملل انقلب مبعثا للحنان والاشواق في نظرة الوداع • حتى مجلسه المعتاد منذ أربع سنوات بقهوة سيدى جابر تجدد للتو شبابه • وقال لنفسه وهو يدخل النارجيلة هيهات أن يجد جوا مناسبا لترطيب التبغ كجو الاسكندرية ، أما النادل الذي جاء بالقهوة فقد قال بأسف :

— ستوحشنا كثيرا يا بيه ••

فابتسم اليه شاكرا ، وعند ذاك دخلت امرأة • هي • هي • التي تتردد على القهوة من شهر لآخر ، التي أطلق عليها امرأة سيدى جابر ، التي تجاهلها طوال أربعة أعوام ، وكانت اختفت منذ أواخر الصيف • ها هي في فستان شتوي، مطوقة الوجه بإشارب وردى ، متلفعة بشال مرصع بالترتر ، ملابس توافق الخريف الزاحف وتلك السحب البيضاء التي أخفت قرص الشمس وطرحت لونها الهادئ الغامض على الشوارع شبه المقفرة • وجلست الى جانب الرومى صاحب القهوة ، وتبادلا كالعادة قليلا من الكلام وكثيرا من الصمت ، يغشاهما جو حاد كأنهما رجلان ، ومن رجال الأعمال على الأرجح • وذلك كان شأنهما من زمان • ومرة همس النادل في أذنه :

— أليست جميلة ؟ ••

رأى عينين واسعتين مقتحمتين ، ووجنتين رiantتين ،
واغراء فى هالة من الثقة بالنفس والحنكة ، فقال وقتذاك دون
تردد :

– ليس الطراز الذى يوافقنى .. !

اليوم تبدو مغرية فحسب كالاسكندرية قبيل الرحيل .
وقال للنادل :

– أربعة أعوام عشتها فى الاسكندرية ومع ذلك فلم أزر
– ولو مرة واحدة – لا حديقة الحيوان ولا أنطونياس ولا
الآثار الاغريقية الرومانية ولا هذه المرأة ..
فابتسم النادل قائلا :

– واسيوط لن تجد فيها شيئا ..

ويبحث الى المرأة بنظرة بدائية ولم يكن فى القهوة الا
منهمكان فى النرد فأجابته بعق .. فقال للنادل :

– ارنى شطارتك ..

انتقلت الى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة . وراح
يؤكد لها أن تعارفا فرصة سعيدة حقا فقالت بدلال بارد :

– أنت كشجرة المانجو ؟

فرقع حاجبيه مستفهما فقالت :

– تحتاج الى خدمة طويلة وصبر !

فهرب من الاعتذار برفع قدحه هامسا « صحتك » ،
وقضما الزيتون الأخضر وهما يترامقان فى صمت حتى قال :

– البيت على بعد دقائق !

فقالت بلا تلعثم :

– جديهان ! ... والآن من فضلك ..

ودستهما فى حقيبتها وهما يغادران القهوة . وأثنت على
الشقة الصغيرة المهندمة فائتى بدوره على البواب صاحب
الفضل . وجاء بطبق فاكهة ووضع على خوان على كتب من

الفراش • وسرعان ما تعانقا دون ما كلمة واحدة • وامتلأ الصمت بتعابير غامضة وهمسات من عالم آخر • واستحكم ظلام الغيب فى جو الحجرة المغلق • وارتجت مصاريع النوافذ بريح مباغته كما يقع كثيرا فى الخريف • وما لبث لحن المطر أن عزف فوق الجدران • ورفع الى النافذة القريبة نظرة محمومة ثم همس مستسلما :

— جو متقلب لا أمان له •

ولكنه استمتع بدفء وراحة عميقة • وانتبه الى الظلمة الشديدة فمد يده الى الأياجورة فأضاء مصباحها • ولحن المطر ما زال يعزف ولكنه خف جدا موحيا بالختام • ونظر اليها قرأها مغمضة العينين كالنائمة • وهاله منظر جفنها الكبير كورقة ورده • ولاحت منه نظرة الى المرأة البيضاء فرائى صورة لشخصه تستحق الرثاء • وكف المطر عن العزف تماما • وسألها :

— نائمة ؟

فجابت دون أن تفتح عينيها :

— لا أناام قبل الفجر •••

وقشر موزة ورشقها برفق بين شففتيها الغليظتين فجلست نصف جلسة وتسلينا معا بالفاكهة • وقالت :

— قال الخواجا انك مسافر بعد غد ••• ولكن ما اسمك ؟ وتذكر وهو يدارى ابتسامة أنهما بدءا بالعناق قبل التعارف • قال ان اسمه بركات ، موظف منقول الى أسبوط ، فقالت وهى تمسح ظاهريدها بباطن قشرة الموز :

— اسمى دنيا ••

فقال لنفسه : اسم غريب وجميل ولكنه بلا شك زائف ككل شيء فى الجلسة ، وشعر بالملل يسترده من الحلم حتى حسد المنهمكين فى القهوة • وقصت عن الماضى والمصير قصة فقال



- انتقلت الى جانيه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بييرة
- وراح يؤكد لها أن تعارفهما فرصة سعيدة

لنفسه : « قصة واحدة .. لا جديد البتة ! » . وسألته عن شقته وأثاثها فأجاب :

— بعثتها بكل ما فيها ... وبعد غد سيحل بها آخر ..
لم يعد بالحجرة الا عبير الموز والفتور . ولولا الجنيهان
لنقوض المجلس . وفي ذروة من ضيقه رآها وهي تمد ذراعها
الى حقيبتها فوق الكنبه ، ثم رآها وهي تستخرج منها
الجنيهين . لاحظها بطرف متسائل فاذا بها تميل نحو الناحية
الأخرى من الفراش لتودع الورقتين فى درج التواليت .
ونظرت اليه وهي تتبسم فتلقى نظرتها بعين لم تفهم شيئا ،
وسألها :

— لمه ؟

فأالت وهي تسبل جفניה :

— نقودك ردت إليك ..

استيقظ من الفتور ولكنه لم يفهم شيئا فقالت بدلال :

— انت قاهم ولكنك تتغابى ، هذا كل ما فى الأمر !

واقسم لها أنه لا يتغابى أبدا فقالت :

— لا لزوم للنقود فى هذه الحال ..

— أية حال ؟

فطوقت عنقه بذراعها السمراء وهو يضطرب من الانفعال

وهمست فى أذنه :

— الرضى ! .. فهكذا أفعل اذا رضيت نفسى ..

وغرق فى نشوة فرح لم يجربها من قبل حتى رققت

الجدران ولكنه هتف فى شيء من الحياء :

— لا .. لا ..

وكتمت احتجاجه بقبلة دسمة فذاب اعتراضه فى فرحة

أشمل حتى ود أن ينعم كل شيء بالأفراح . واندفع يعد المكان

لسهرة طويلة سعيدة فمضى الى الصالة ففتح الراديو ، وثاندى

البواب فأمره باحضار شراب وشواء ، ثم رجع الى الحجرة وهو يقول :

— كم من مرة رأيتك فى القهوة طوال أربعة أعوام ؟ ! ..
ولكننى أحمق ..
— والرحيل ؟ !

فهن رأسه بأسف ثم تعتم :

— بعد غد ؟ ! .. من يصدق هذا ؟ ! .. ولكننى أحمق ..
واستلقى عند قدميها وهو يفرقع بأصابعه مع نغمة راقصة ردها الراديو . واقتنع بأن الدنيا تتمتع بصحة تمسد عليها . وخطرت له فكرة جديدة فوثب الى الأرض وهو يتساءل :

— ما رأيك فى نزهة ليلية ؟ !

ومضيا الى ملهى صغير بشارع النبى دانيال . وتغلب بسهولة على حرص ماثور عنه فأنفق بسخاء ، وشربا كثيرا ، ورقصا مع كل نغمة . وفى فترة استراحة لاحظ أن شابا يرمق محبوبته باهتمام فتكدر صفوه وتوثب لمواجهة أى احتمال لا يروقه . وتقدم الشاب من دنيا وانحنى تحية ثم طلبها لرقصة مقبلة فنفخ بركات غاضبا حتى همست فى أذنه :

— هذا تقليد مألوف لا ضرر منه ..

فقال بغلظة :

— لا أحبه ..

ثم حدى الشاب بنظرة حمراء ، وقال له بخشونة :

— اذهب ..

ولم يدر بماذا أجاب الشاب ولكنهما التحما فى عراك بسرعة مذهلة . ولم يشعر بما تلقى من ضربات ولكنه أصاب خصمه فى بطنه فترنح وكاد يسقط على ظهره لولا أن تلقاد النادل بين يديه . وأحدثت بهما الأعين المخمورة فى ذهول

ووجود . وتنقل مدير المحل بين الموائد مهدئا للخواطر ثم أشار الى الأوركسترا فانطلق يعزف داعيا الى رقصة جديدة . وجعل بركات يلهث ودنيا تسوى له ربطة عنقه وقد أنخلع زرار الجاكتة وتهتك الجانب الأيسر من أعلى القميص ، أما اللكمة النى أصابت صدره فلم تكن بذات بال ، ورغم ذلك فلم يستأثر به الكدر أكثر من دقائق ، وسرعان ما عاوده الانسجام ، وراح يشرب كما يحلو له . ورمقه البعض بحقن فمالت دنيا على أنه قاتلة :

— نذهب يا عزيزي .

وغادرا الملهى وعشرات النظرات تصفعه بأزدراء ، ولكنه شد على ذراعها بمرح وسعادة ، وداخله احساس قوى بالزهو والفخار فقال لها :

— لا تغتمى يا عزيزتى ، هذه متاعب يسيرة ، وكثيرا ما

تحدث .

واستقلا ترام الرمل مع الجمهور المنصرف من السينما . ومد ذراعيه حولها كالسياج ليدفع عنها غائلة الزحام ولكن رغم ذلك ضايقها رجل عن قصد أو عن غير قصد . وربما بنظرة وعيد ولكن الآخر كان فى واد آخر فواصل مضايقاته . وانفجر فيه غاضبا من رأس دارت به الخمر . وتبادلا كلمات غاية فى القسوة ، ثم تبادلا لطمات ولكمات بعنف قبل أن يفصل الناس بينهما . وتدخل أولاد الحلال لمنع المضاعفات . ووجد فى وجنته اليسرى ألما ، وسال الدم من زاوية شفته السفلى ، وجعل يجفف الدم بمنديل طيلة الطريق ولكن الدم الغزير الذى خضب شارب خصمه عند أسفل أنفه الملتوب خفف من شدة أنفعاله . وعند مغادرة الترام لفحه هواء منعش شمل بعبير المطر قارتفعت روحه وقال :

— جرحى بسيط . لكنه خسر أنفه فيما أعتمد .

فتمتعت في ملق :

— كذبت تقتله الله يجازيك ..

وندت عنه ضحكة ثم قص عليها نوادر من معاركه في
الزمان الأول قبل أن تشكمه الوظيفة . وكان يروى ذلك بفخار
واضح ، ثم عاوده مرحة كان شيئاً لم يكن ، وهكذا رجعا الى
حجرتهما . ووجد الشراب والشواء على الضوان حيث تركهما
البواب فقال :

— جميل جدا ، ولكن ينقصنا الزهور ، كان يلزمنا باقة
ورد ويا للأسف !

وغسلت له جرحه ودلكت وجنته وهو يغنى « ما تبطل
الشفاعة وتيجي عندنا » وقالت له ضاحكة ان صوته لم يخلق
للغناء فقال ان المهم هو السعادة فعند ذاك يغنى أى شيء . ثم
تحدث ببلاغة رقيقة عن الحب حتى قال لها :

— ليس كمثله شيء ..

ثم قال أيضا بعد أن قبلها بامتنان :

— لا بد من الرجوع الى الاسكندرية ، سنلتقى كثيرا
بالرغم من الرحيل ..

وعندما ساد الصمت ارتفع زئير الهواء خارج النافذة
فقهقه بركات قائلا :

— جو بلادك قلب ولكنه جو سعيد !

وعندما اختفى كل شيء في الظلمة اشتد زئير الهواء ،
وأكثر من مرة نضح شيش النافذة بوميض البرق في موجات
قصيرة متتابعة كالدغدة كشفت عن معالم الحجرة الكاسية
والعارية ثم أستكن الظلام كالكثف مما كان فتضاعف حنان
الشباب واستمتعاه بالدفء والأمان . ووجد نفسه يتذكر جو
الساحل عندما يكفهر وتنتشر في تضاعيفه تحركات غامضة
متوترة تنذ ، بوشيك المطر . وما لبثت الأمطار أن انهلت فوق

النافذة فى عريضة صاخبة فقال لنفسه وهو يستزيد من متعة
الامان والهناء ان قيام الساعة نفسها يطيب فى أحضان الحب .
واستيقظ عند الضحى .

وفتح النافذة فدخل هواء بارد وتراءت السماء مليدة
بغيوم فى لون المغيب جامدة غير موحية .

وجلست هى على الكنية فى تراخ مشعثة الشعر منتفخة
العينين فاترة النظرة شبة عابسة كأنها لم تعرف اللعب .
وخيل اليه أنها كبرت أعواما فصرعان ما شعر بالكبر وبأن كل
شئ زائل . وتثائب طويلا بصوت كالانين ثم قالت وكان أول
ما نطقت به منذ استيقاظها :
— هذا أوان الذهاب .

فتساءل :

— لم العجلة ؟

فتعتمت :

— انتهت الليلة ، ولدى عمل ومواعيد !

ثم رأى حركة لم يكن يتوقعها . رآها تميل نحو التواليت
ثم تفتح الدرج وتسترد الجنيهين من مكانهما ثم تعيدهما الى
حقيبتها وقد تضاءبت مرة أخرى . ما معنى هذا ؟ ! . وسألها
فى حيرة :

— أنت فى حاجة الى نقود ؟ !

— كلا ، أخذت ما اتفقنا عليه فقط !

فتساءل فى دهشة وكابة :

— أى اتفاق يا عزيزتى ؟ !

— الاتفاق ، نسيت ؟

فضحك ضحكة بلهاء وقال :

— الظاهر أنك أنت التى تنسين !

ولم تعن بالرد فقال بجزع :
- شيء عجيب ، النقود لا تهمنى ، ولكنك قلت أمس ٠٠ ،
أنسيت حقاً !
وقال لنفسه أما أننى مجنون وأما أنها مجنونة ٠ ثم قال
عابساً :

- ما لك ؟ ، ماذا جرى ؟ ، خبرينى من فضلك ؟ !
فأبتسمت ابتسامة باردة وهى تتساءل :
- أتريد أن تأخذ دون أن تعطى ؟
- قلت أنك لا تأخذين عندما ترضين !
فرمقته بنظرة غريبة ثم قالت :
- أردت أن أهبك ليلة سعيدة ، هذا كل ما هنالك ٠٠
فسألها بصوت متهدج :
- مجرد حيلة من الحيل ؟ !
- ولكنها أسعدتك سعادة حقيقية ٠٠
فقال وغضبه يتراكم كزوبعة فى الأفق :
- كذبة حقيرة ٠٠

- لا تزعل ، كانت السعادة حقيقية ، وأنا أستحق
شكرك !

رماها بنظرة قاسية لم تر من وجهها إلا دمامة وحشية ،
وأنصفى فى رجفة الى حديث نفسه الثائرة التى تدعوه الى
خنقها حتى يتفجر دمها الأسود فنظرت اليه بقلق وحذر
فصاح بها :

- شيطانة حقيرة ٠

فلم تنزع بصرها منه متوثبة للدفاع عند أول حركة
فصاح :

- وحيلة فاشلة ألا تدركين ذلك ؟ ٠٠ أود أن تدفعى حياتك
ثمناً لها ٠٠

فلم تنبس وازدانت حذرا فعاد يقول :
- وما فائدة ذلك يا مغفلة ؟ ، لن تستطيعي أن تكرريها
مرتين *
اطمأنت الآن الى أن موجة الجنون قد انحسرت عنه فيما
بدا وأنه أخذ يسترد شيئا من هدوئه الخائب وان رانت عليه
كأبة ثقيلة فقالت :
- لكنها حيلة لا بأس بها قبيل الرحيل ، أليس كذلك ؟
فقال بازدياء :
- قلت يا مغفلة انك لن تستطيعي أن تكرريها مرتين **
فتساءلت :
- ومن قال اننا سنلتقى مرة أخرى ؟ !

حلم نصف الليل

أم عباس امرأة جميلة ، عرفت في الحي بجمالها ، ويتطلع اليها أصحاب الأذواق كما يتطلع أهل الخلاء الى عين ماء • وهي الى ذلك تملك عمارة قديمة من أربعة أدوار غير ثلاثة دكاكين أسفلها ولذلك اعتدها الأهالي وكلهم فقراء حلما موسى بالذهب • ويوم توفي زوجها بائع المسابيح والمباسم والأوراد كانت في حوالى الأربعين ، وهي سن يعتبرها الحي ذروة النضج ومجلى البضاضة وعطر الأنوثة • وكثيرون سمعوا الى التزويج منها ، ولكن القسمة دفعت بها الى أحضان رجل لم يجر عند الظن على بال • كان حسنين يملك عربة كارو ويؤجرها الى الغير ، في الثلاثين من عمره ، قوى الجسم مرهوب الجانب ، ومعدودا من فتوات الدرجة الثالثة • ولم يكن أحد في الحي يحبه أو يعجب به فازدادوا له مقتنا . وعجبوا كيف تقع امرأة كنم عباس في أحابيله ، وقالوا بأسف والغضب والحسد ياكلان قلوبهم :

— مسكينة أم عباس ، ومسكين عباس !

وعباس ابنها من الزوج الراحل ، في العشرين من عمره ، طبيب القلب جدا ، تلوح في عينيه الواسعتين نظرة صامتة ، ولعلها ناطقة بلغة مجهولة ، يبتسم كالأطفال ، ويطلق شاربه ولحيته ويحبهما • وهو أمى لم يحصل في الكتاب حرفا ولذلك فتح له أبوه دكانا من دكاكين العمارة لبيع الحلوى والقول السودانى واللّب فكان يغدق على الأطفال بغير حساب • ولما تزوجت أمه من حسنين غاب عن الحي أياما ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

— لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر ...

ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

— يا أم عباس ••• الله يسامحك •••

وعندما ينقضى النهار يخلع جلبابه ويلبس بدلة زرقاء فاتحة اللون فهو يحب الألوان الفاتحة ، ويمشط بعناية شاربيه ولحيته ، ويغطي رأسه بطربوش متداعى الأركان ، ويتناول عصاه الخيزران البرتقالية ، ثم يفلق الدكان وينطلق في سبيل طويل ، ملقيا بتحياته يمنة ويسرة ، يلوك في فيه قطعة من السكر النبات ويقتسم في سعادة رائعة ، وأكثر الليل يرى هائما على وجهه • ومذ تزوجت أمه من حسنين اتخذ من دكانه مسكنا فلم تعارضه أمه طويلا لعلها يعناده ، وكانت لا تخشى شيئا عليه وتقول ان ملائكة الله تحرسه • وسعى حسنين يوما إليه متوددا ولكنه صاح في وجهه :

— اذهب ، أنا لا أعرفك •

فغضب الرجل قائلا :

— أنا عمك ••

وحال اناس بينهما وهم يلاطفون الرجل دفاعا عن الشاب المحبوب • وهزنت أم عباس حتى دمت عيناها الجيلتان • كانت تحب عباس لأنه وحيدها ولأن وجهه صورة من وجهها • أجل كان عباس جميلا ، ولا يخفى جماله رغم اللحية والشارب والطربوش المتداعى الذى يغطي ثلث وجهه •

ومن عجب أن حسنين ازداد بعد نعمة الزواج من أم عباس فظاظة وانحرافا • واستفحل جانب الفتوة من ذاته فاشتري الأعوان وأكثر من العدوان ، وكان يسكر حتى تلاطمه الجدران ، وكان يغنى اذا سكر بصوت تنفر منه الخفافس ، وكلما رأى عباس الرجل في حال من أحوال عربدته خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

— يا أم عباس ٠٠٠ الله يسامحك ٠٠٠
ويوما ترامت حشيرة نبراته الصارخة من وراء الشيش
الى الطريق فى هياج وحشى :

— أنا سيد البيت ٠٠٠ أنا سيد الكل ٠٠
وتخيل الناس المرأة الجميلة تحت زوبعة الاهدانات بأسف،
المرأة التى لم تعرف فى ماضيها سوى الحب والتكريم .
وتساءلوا عن سر ذلك الغضب . واجاب سكان العمارة بأن
الايراد هو سر الغضب ، وأن الفتوة انتصر ، واصبح المحصل
الوحيد للايجار ! . ولم تعد أم عباس تخرج كمادتها لزيارة
الجارات والتجول فى التريبة . لم يعد أحد يراها وهى
تتبخر فى الملاة اللف كالمحمل وعيناها المكحولتان ترنوان
بنظرة دسمة حول عروس البرقع .

ولم يقنع حسنين باغتصاب دخل الأم فمضى يوما الى
دكان عباس وهتف وهو يترنح من السكر حتى طير الأطفال
عن ملعبهم :

— دلنى على سليم واحد ورثته عن أبيك ؟
وتعلقت عينا عباس بالأطفال وكأنه لا يرى الرجل الآخر ،
فأنذره هذا بسبايته صائحا :

— ادفع الايجار أو قلتخل الدكان ٠٠
وسارع اليه بيومى اللبان ليهديء من ثائرتة ، وتودد اليه
بمعسول الألفاظ حتى مضى به بعيدا وحسنيين يقول بلسان
ملقو ونثار ريقه يرش وجه بيومى رشا :
— معتوه ويلطجى ٠٠

وعند المساء انطلق عباس الى جولته الليلية ، يجود
حيثما ذهب ببسمات رائقة وتحيات حارة فى سعادة ملائكية .
ودبر حسنيين حملة ارهابية جديدة . ليحمل أم عباس على أن
تبيع له العمارة بيعا صوريا . واشتد الخلاف بينهما فضجت

الحارة بصراخه وتهديداته • وشكت المرأة الى الجارات كريبها • وتشاور بعض الطيبين فى السعى لدى حسنين ليعدل عن مطالبه ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اتخاذ خطوة ايجابية خوفا من بطش الرجل وبخاصة أنه اعتدى فى ذلك الوقت اعتداء وحشيا على رجل يدعى « كرملة » عندما ضبطه يوصل نقودا من ام عباس الى ابنها • وارتفع نحيب المرأة ذات ليلة عقب تعنيف شديد من الرجل ثم علم أهل الحى أنه ضربها ضربا شديدا وأنها لن تطول مقاومتها •

وعند الفجر تعانى صراخ فمزق السكون تمزيقا • واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ وهرع كثيرون الى مصدر الصراخ ، الى القبر • وعلى ضوء فانوس راوا بيومى اللبان وهو واقف يرتجف • هو أول من يستيقظ فى الحى ليسرح بصفيحة اللبن ولكن ماذا دماه ؟ • ووجدوه يشير الى مكان فى الأرض فنظروا حيث يشير فأروا حسنين سابحا فى دمه وقد تكومت جثته أسفل جدار القبر •

واضطرب الحى اضطرابة عنيفة ، وسرعان ما احتلته الشرطة والنيابة ثم اندفع التحقيق فى جميع الجهات متعقبا كافة الشبهات • استدعى كرملة وهو آخر ضحية للمقتيل ، وأم عباس ، وبعض سكان العمارة ، وبيومى اللبان نفسه ، وعشرات وعشرات من خصوم الرجل الذين لا يحصيهم عد ، ولكن ثبتت براءتهم جميعا بصورة قاطعة • حتى عباس استدعوه للتحقيق ، ولما سئل عن المكان الذى كان فيه وقت ارتكاب الجريمة أجاب ببساطة :

— كنت مع الخضر ••

ولما أراد المحقق أن يعرف من هو الخضر أجاب عباس ،

بدهشة :

— ألا تعرف سيدنا الخضر ؟ !

ولكن كثيرين كانوا يعرفون تجوال عباس خطوة فخطوة وقد شهدوا نيابة عنه . وهكذا بدت الجريمة لغزا لا يريد أن يحل . وعرف من التحقيق أن حسنين قتل بألة حادة هشمت مؤخر رأسه . والحق أن أحدا لم يأسف عليه . ولكنهم تساءلوا كثيرا عن القاتل ، وظلت الجريمة حكاية الحارة المثيرة زمنا طويلا .

وظن أول الأمر أن عباس سيرجع الى مسكن أمه ولكنه رفض ذلك باباء . واعتصرت المحنة الأم فغرقت في الحزن ولكن جمالها قاوم المأساة وخرج منها في النهاية متألقا كماضيه . وعادت تتبخر بين السكة الجديدة والتربية وعاد الاعجاب يحوطها كالهالة .

وإذا برجل يتقدم طالبا يدها . كان في الحقيقة شابا دون الثلاثين . قصبا أقرب ما يكون الى الفقر ومن أهل الحى المجاور ، جميل الصورة ، دمث الأخلاق ، نظيف الئمة ، وتسأل الناس هل تجازف المرأة بقبول التجربة مرة أخرى ؟ وقبلته المرأة بأسرع مما تخيل أحد . ومع أن بعض الطيبين قالوا ان الله قد عوضها خيرا الا أن كثيرين تهامسوا متسائلين : ترى لهذا الرجل علاقة بالجريمة الفامضة ؟ ! أما عباس فقال كعائته :

— لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر .

وخرج الى وسط الطريق ثم رفع رأسه الى عش العروسين صائحا :

— يا أم عباس . . الله يسامحك !

وبلغ التهامس المريب مسامع الحكومة فأجرت تحرياتهما عن العريس — وكان يدعى عبده — واستدعى لسؤاله هو وأم عباس ولكن لم يثبت عليهما شيء وظل اللغز أخرس كما كان . وتجلت بالمعاشرة عزايا عبده القيمة فقد وهب المرأة حبا وعطفا



... خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن
أمه وصاح بأعلى صوته : يا أم عباس .. الله يسامحك ..

ومعاملة كريمة • وعرض من بادىء الأمر صداقته على عباس
ومع أن الشاب نهره قائلا :
— دعنى وشأتى ••

الا أنه حباه بعطفه ورعايته وحث أمه على مده بما هو
فى حاجة اليه من نقود • وأثبت فى الوقت نفسه أنه ذو عقل
راجح فقد اقترح على أم عباس أن تباع حوشا خلقيا للعمارة
قائما على ناصيتين لتجدد العمارة بثمنه وتبنى دورا جديدا •
وأولته المرأة الثقة التى يستحقها فتجددت العمارة وارتفعت
وازداد دخل أم عباس زيادة محسوسة حتى أعجب به الناس
وقالوا رجل ولا كل الرجال • وقال بيومى اللبان لعباس وهذا
يتناول عشاءه فى دكانه قبل الانطلاق الى جولته الليلية :
— أنت لك قلب ملاك فكيف تنفر من رجل طيب كعم عبده ؟
فمضى عباس فى تناول الزيدى كأنه غير المقصود
بالكلام فتساءل بيومى :

— ألا تحب من يحب الناس ويعمر الخرابات ؟
وأعاد عباس سلطانية الزيدى فارغة ثم نظر فى عيني
بيومى قائلا :

— الوحش : •• ألم تره وهو يقطع اللحم فى دكانه ؟ !
ووضح فيما تلا ذلك من زمن أن عبده بار كذلك بأمله
فكان كلما خلت شقة فى العمارة أسكنها أحد أقاربه • وكان
يخضض الإيجار للفقراء منهم بائن من زوجته • وفى ذلك كله
لم يجد أحد ما يؤاخذ به عليه حتى جاء بأمه وأختين له ليقمن
معه فى شقته فعند ذاك ردد البعض المثل القائل : « أن كان
حبيبك غسل ما تلحسوش كله » • والحق أن أم عباس لم ترتج
لذلك ، وهى قد فوجئت بالأمر الواقع مفاجأة لم تستطع معها
منعه ولكنها أدركت أن الزمام قد أفلت من يديها وأنها لم تعد

سيدة بيتها بحال بعد أن اضطلعت حماتها بالمسئولية فشعرت بالضيق .

وإذا به يوما يخلى دكانين من دكاكين العمارة الثلاثة ويهدم الجدار القائم بينهما ليقيم منهما دكانا كبيرا فخما ، ثم انتقل اليه من محله الصغير بالحى المجاور ، وعلقت الخراف والعجول ، وصار اكبر قصاب فى الحى كله . وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مرقىء حسن الصوت وحمد عبده الله بصوت سمعه الكثيرون على ما فتح به عليه من مال حلال ! ولأول مرة اختلف الناس فيه فمن قائل انه مثال للأمانة والبر ، ومن قائل انه حسنين آخر حريرى الملمس . وشك الناس فى ذمته وعض الحسد قلوب الكثيرين . وتغير عبده بعض الشيء فاختلفت نظراته الودية وحلت محلها نظرة جديدة مليئة بالثقة وطعم دماثته المألوفة بقدر من الحزم والعزم اقتضاهما مركزه المالى ومسئوليته كرجل أعمال . ولم يكتف باستعمال حزمه وعزمه فى التجارة فاستعملهما فى البيت أيضا كلما نشب نزاع بين أم عباس وأهله ، واستعملهما خاصة مع أم عباس . ولما كانت المرأة لم تعهده الا لطيفا مؤانسا فقد كبر الأمر عليها وحزنت حزنا شديدا . وساءت الحال بينها وبين أهله ، وأصررت على استرداد ما ضاع من حقوقها فى بيتها ، حتى قالت له يوما :

— أنا لا أريد أن يشاركنى أحد فى بيتى .

وإذا بالرجل يقول لها بصوت رهيب :

— لك ما تشائين فتفضلى بالذهاب !!

ولم تصدق المرأة أنניהا . ثم صاحت :

— هذا بيتى .. وعلى الآخرين أن يتركوه ..

ووقع اشتباك بالأيدي بين النساء فهاله أن يعتدى على

أمه ، وإنهال على أم عباس ضربا ، ثم دفعها خارج البيت .

وجدت نفسها وحيدة فى الطريق حتى آوتها أسرة فقيرة تمت
بقربى بعيدة الى زوجها الأول . وهز الحادث النفوس هزا
وهرع عباس الى ما تحت مأواها الجديد وصاح بأعلى
صوته :

— يا أم عباس .. الله يسامحك ..

ولم يدر الجيران ماذا يفعلون ، فلم يكن من اليسير
اغضاب الرجل بعد أن كبر نفوذه وتعلقت به مصالح الكثيرين .
وفكر البعض فى رفع الخلاف الى ساحة القضاء ولكنهم كانوا
يتحاشون بذلك سرا خوفا على أنفسهم . ولم يجهر
بالسخرية منه الا عباس حتى غضب عليه الرجل فمنع عنه
مصرفه وهو يقول بأعلى صوته :

— عيب السفهاء لا يجوز أن يمتد الى المال ..

والتفت الى كثيرين من أهل الحى الذين وقفوا يشاهدون
النزاع وقال لهم :

— أى واحد منكم أحق بالنقود التى يعيب بها هذا الغلام

المعتوه ..

ولكنهم كانوا يرمقون الدكان والضراف والعجول
ويتساءلون : وهذه الأموال ما شأنها ؟ ! ، أما عباس فلم
يكثر لشيء وبدا كأنما يزداد سعادة وسيادة ، وكان ينطلق
فى الليل كأنه وارث الملكوت . وقال الناس أن أم عباس امرأة
تعيقة الحظ وإن قلبها الضعيف يدفعها دائما الى المهالك .
وبينما كانت تعيش بفضل احسان أسرة فقيرة كان عبده
يتضخم ويشارك فى كل نشاط مالى فى الحى . وسمى بالصلح
بينهما أناس طيبون حتى أعادوا المرأة الى بيتها . ولكنها
عادت منكسرة النفس لا أمل لها فى حياة كريمة ، ولم يسمح
عبده بإعادة مصرف عباس اليه الا بشرط أن يشاركه فى دكانه
أحد أقربائه هو ليصون المال ويدير العمل . وأحب عبده

الحياة المريحة المترفة ففقد اللاسة الشاهى الفاخرة فوق
رأسه وتلفح بالعباءة من وير الجمل وليس المركوب الملون من
خان الخليلى وتحلى بالخواتم الذهبية ، وسبقته رائحة المسك
حيث ذهب فيقوم له الناس على الجانبين حتى يختفى عن
الاعين فيتهامسوا :

— الله يرحم أيام زمان ٠٠ !

وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا •
واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ ، ثم هرع الجميع الى
القبو • رأوا بيومى اللبان وهو يرتجف فنظروا الى حيث يشير
فرأوا المعلم عبده مكوما ورأسه غائص فى بركة من الدم •
وزلزل الحى زلزالا عتيفا • وأطبقت عليه الشرطة والنيابة
والخبرون • واستدعى الى التحقيق عدد لا حصر له من أهل
الحى ، ولكن لم يقع على أحدهم ظل شبهة من قريب أو بعيد •
وقطعت الدلائل بأن جريمة عبده ستلحق بجريمة حسنين •
وقال أناس وهم يضربون كفا بكف :

— ما أعجب هذا ! ٠٠

فقال آخرون :

— انتظروا حتى يظهر العريس الجديد ٠٠

ومضى عباس الى دكان بيومى ليتناول عشاءه المعتاد قبل
الانطلاق لجولاته الليلية • وجعل بيومى يرمقه بغرابة وهو
يأكل الزبادى بأناء وسعادة ، وشاربه ولحيته يلتقيان حول
فيه ويبتعدان فى حركات متتابعة • وتردد بيومى قليلا ثم قال :

— عباس ! أنت أعجب شيء فى حارتنا ٠٠

فابتسم عباس اليه بمودة اذ كان أحب الناس الى قلبه ،
فقال الآخر فيما يشبه الهمس :

— كان عبده ما زال حيا عندما عثرت عليه فى القبو ٠٠

فتحسس عباس شاربته عند امتداده فوق فيه لينأكد من
جفافه ، فقال بيومي :
— وقد نطق باسم قاتله قبل أن تصعد روحه ٠٠
فملا عباس المعلقة بالزبادى ورفعها الى فيه وهو يركز
فيها عينيه ، فقال بيومي :
— وهو بلا شك قاتل حسنين من قبل ٠٠
لاح فى وجه عباس غناء من يستحضر خيالاً لا يرام ،
فقال بيومي :
— وعند التحقيق نسيت كل شيء وتلك ارادة الله !
أتى عباس على آخر ما فى السلطانية وتأهب لمغادرة
الدكان فتساءل بيومي :
— من أنت يا عباس ؟ ! ٠٠ وماذا يقول لك سيدنا الخضر
كل ليلة ؟ !

قوس قرخ

اجتمعت الأسرة على هيئة مجلس للشورى • ذلك تقليد جميل متبع من زمن بعيد بفضل حكمة الوالدين : حسن دهمان وهو من رجال التربية وعلم النفس والسيدة نظيرة وهي مفتشة كبيرة بوزارة الشئون ، والغرض منه تروى لاشراك الأبناء فى تحمل المسئولية وتفهم الحياة فضلا عن انه يجعل من العقل المحرك الأول لسلوكهم • وقالت الام :

— نحن نجتمع لمناقشة مسألة « طاهر » ••

وطاهر هو الابن الأصغر ، فى المرحلة الثانوية ، يحب ابنة زميل لاييه تقاربه فى السن ، ولما كانت أسرة الفتاة على وشك الانتقال الى بلد عربى لعدة سنوات فقد أراد طاهر أن يخطب البنت قبل السفر • وقال سمير وهو أكبر الأبناء وطالب بكلية الهندسة :

— أعتقد أن الخطبة بالنسبة لطاهر سابقة لأوانها ••

وقالت هدى وهى طالبة بكلية الحقوق :

— طاهر متقلب فى عواطفه ، رأىي التريث ••

والتفت حسن دهمان بوجهه الجاد نحو طاهر وقال :

— أود أن أسمع رأيك •• ؟

وبوجه متجه ، وهو يركز بصره فى تهاويل السجادة تجنباً للانتقام الأعين ، قال طاهر :

— ما فائدة الكلام ما دام أن العقل سينتصر فى النهاية ؟

وطال الأخذ والرد ، ثم أخذت الأصوات ، وانتصر العقل كما تنبأ طاهر ، وقال الأب معلقا على النتيجة الحكيمة :

— هذا هو عين العقل ••

هذه الجملة اكليشيه يختم به الرجل مناقشاته وتقريراته

الموفقة • ومنها يقف طاهر موقفا غير ودي إذ انه طالما عانى المتاعب باسم العقل • ولكن العقل يلعب دورا خطيرا فى حياة الأسرة كانه معبود • بفضل توجيهه ساد الأسرة نظام عجيب فهى ساعة دقيقة • البيت آية فى الترتيب والأناقة كانه وجه ذو ملامح أبدية • سسقوط عود كبريت أو تزحزح مقعد عن موضعه أو ارتفاع فى درجة صوت الراديو عن الحد المرسوم يعد من الحوادث المزعجة التى تتطلب علاجا سريعا • أوقات الطعام والاستيقاظ والنوم والعمل والراحة تخضع لدقة فلكية ، ويقول حسن دهمان عن ذلك كله :

— هذا هو عين العقل ••

ولكل فرد فى الأسرة دفتر توفير ، ونوع من الكتب يلائمه ، وحتى الأغاني والبرامج الإذاعية والتلفزيونية تتقرر بعد مشاور ونقاش ، ولدى مواجهة أى مسألة هامة ينعقد مجلس الأسرة ويدلى كل برأيه ، ويفحص هذا الرأى بكل عناية ودقة سواء تعلق بنوع الدراسة أم الحب أم الصداقة أم السياسة ، أجل لا يفلت من هذا النظام شئ ، ثم يقول حسن دهمان بكل ارتياح :

— هذا هو عين العقل ••

وغقارب الساعة آيات فى الدقة الا العقرب الصغير فهو مصدر قلق لوالديه •

— ألا تخجل من نفسك يا طاهر ؟

لكنه ينظر بغرابة الى ما حوله • لا يريد أن يتحمس لشئ • ويحضر مجلس الأسرة وهو كاره • ويتحفظ للمعارضة بسبب وبلا سبب • نشاز فى أوركسترا العائلة • ويغالב ضحكة مريرة فى أحايين كثيرة • وبلغ به الاستهتار مرة أن اقتحم المطبخ وتناول غداءه قبل موعده المحدد بنصف ساعة • وقال له والده :

- ولكن هذا شدون لا ميرر له يا بنى ٠٠ ؟
ولما لم يجد منه استجابة من أى نوع سأله .
- ألا زلت تفكر فى الخطبة ؟
فجواب ببساطة .
- كلا ، الجوع هذه المرة لا الحب ٠٠ !
ولما ذهب همست نظيرة هانم فى أذن زوجها :
- آخر العنقود يا عزيزى ٠٠
فتساءل الرجل مقضبا :
- هل نرضى بالهزيمة ؟
- كلا ، ولكن الأمر يتطلب عناية مضاعفة ٠٠ .

وآمن طاهر بان « هذا هو عين العقل » تطارده حيث ذهب . انها تطوقه فى الظاهر والباطن . انه غريق فى نسيجهما المحكم . حتى الحب والطرب والحزن . وسمع لجريان الدم فى أطرافه صوتا فأيقن أن شيئا سيحدث . وشاركه احساسه من يعيشون حوله ولكن فى صمت متبادل . ويوما وهو فى الفراندا المطلة على الحديقة الصغيرة حدث شيء . كان موسم الامتحانات يقترب وسمير وهدى مكبان على المذاكرة . وكان الأب يكتب بحثا والام تقرأ مجلة أمريكية . ويكى طاهر . كان فى الفراندا يذاكر . وشعر بأن الحمل فاق احتماله وأن الدنيا لا شيء . وترك الكتاب فوق الترابيزة وراح ينظر فى لا شيء . وحزن حزنا عميقا . ثم انصهرت الكتابة فذابت دموعا . وكتم البكاء أول الأمر أن يسمعه أحد . ثم تدافعت الدموع بغزارة مذهلة فنشج ثم نحب . وغلبه ذلك فاستسلم للنحيب حتى هرع اليه الجميع . وقفوا مبهوتين . وجاءت أمه بماء ففسلت وجهه . وظل ييكى بحركات بلا صوت ويلا دموع . وأسند رأسه الى صدر أمه فتلقته بحنان وهى تتساءل بقلق ترى هل جاوزت الحد « المعقول » فى اظهار



وقال له والده : ولكن هذا شئوذا لا مبرر له يا بني ؟

الحنان الذى يعتمل فى صدرها ؟ • ثم هداً طاهر تماماً فجلس
واجماً ولم يبق من الانفعال الغريب الا نظرة حزينة بكل معنى
الكلمة • وساد الصمت وارتسمت الأسئلة فى الأعين القلقة •
وسلته الأم :

— ما لك يا طاهر ؟

أجاب دون أن ينظر الى أحد :

— لا شيء ••

ارتسمت الدهشة والاحتجاج مكان الأسئلة ، وقال له

سمير :

— خبرنا بما يحزنك ••

وقالت هدى بحرارة :

— يجب أن نعرف ذلك ••

ولكن الأب أشار اليهما بالخروج فخرجا ثم سأله برقة :

— ماذا بك يا بنى ؟

— قلت لا شيء ••

— أيام الامتحانات أيام مرهقة للأعصاب •• ؟

— كلا •• كل شيء طيب ••

وغادر الرجل الحجرة ليمنح الأم فرصة أطيب ولكن
طاهر لم يقل شيئاً • ولم يكن يعرف أكثر مما قال ، ولذلك لم
يستخلص أحد منه جديداً لا فى تلك الليلة ولا فى الأيام
التالية • ونصحه والده بالتريض فى الشوارع المحيطة
بمساكنهم ساعة كل يوم قبل أن يجلس للمذاكرة • واعتبر
الحادث عرضاً من أعراض الإرهاق العصبى • ولم يعد أحد
يذكره ، ثم نسوه تماماً •

ويوماً قال حسن دهمان باهتمام :

— دعوت مديرتنا الجديد الى سهرة لطيفة فى حديقتنا

الصغيرة ••

وخاطبت الأم الأبناء قائلة :

— يجب أن تظهر بالمظهر اللائق وأن تمكثوا معنا قليلا ثم
تنصرفوا للمذاكرة ، وسيتوقف على لباقتكم نجاح الحفلة ٠٠
وتسأل طاهر :

— أهو صديقك يا بابا ؟

فتفكر الرجل مليا ثم قال :

— الصداقة نعمة كبيرة وعلينا أن نستزيد منها كلما وسعنا
ذلك ، والمدير العام مجرد زميل أكبر ولكنه سيكون غدا صديقا ،
والحياة الاجتماعية تطالبنا بواجبات نافعة لا بد منها ٠٠

وقال طاهر لنفسه : « هذا هو عين العقل » ٠ وكان المدير
الجديد قصيرا بدينا ضخم الوجه والرأس أصلع ويتكلم ببطء
شديد ٠ وأنعم طاهر فيه النظر وهو يقاوم رغبة شريفة في
الضحك ٠ وأعجبه منظر أمه وهدى وهما في كامل زينتهما
وتابع أحاديث أسرته الطلية بدهشة ٠ وسمع والده يستشهد
بالشعر أكثر من مرة وسمع أمه وهي تعلق على شكوى المدير
من كثرة نسيانه قائلة :

— تلك آية العبقرية يا سعادة البية ٠٠

وانسحب سمير وهدى في الوقت المناسب ولكن طاهر لم
يبرح مجلسه ، ورغم اشارات أمه الخفية لم يبرح مجلسه ،
ولما لاحظ أبوه تطلعه الى المدير قال له :

— آن لك أن تذهب يا طاهر ٠٠

فتسأل طاهر :

— ألا أقول شعرا يا بابا ؟

وقطب الأب على حين سأل المدير :

- أنت شاعر ؟
 - كلا ولكنى أحفظ الشعر ..
 - إذن اسمعنى لأعرف ذوقك ..
 فقال طاهر بانتصار :
 - علو فى الحياة وفى الممات ..
 - شعر مشهور ..
 - قليل لمناسبة شفق رجل !
 فضحك المدير قائلا :
 - شعر جميل أما المناسبة فسيئة جدا !
 عند ذاك ضحك طاهر . شعر بأن الحمل فاق احتماله وأن
 الدنيا لا شيء وراح ينظر فى لا شيء . وعزن حزنا عميقا . ثم
 انفجر ضاحكا . ويادره أبوه فأخذه من يده ومضى به خارجا .
 وعند نهاية السهرة ناقش الوالدان مشكلة طاهر طويلا فاتفق
 رأياهما على أنها بحاجة الى علاج حقيقى ، ولكنهما رآيا أن
 الأوفى تأجيل ذلك الى ما بعد الامتحان .
 ويوما ارتفع صوت هدى فى البيت وهى تنادى فى شبه
 استغاثة صائحة « ماما .. تعالى انظرى ماذا فعل طاهر ! »
 وهرع الى حجرة الشاب كل من سمع النداء . رأوا الحجرة
 فى أغرب منظر . منظر لا يخطر على بال انسان . حشية
 السرير قد طرحت فوق المكتب . والكتب والأوراق قد صفت
 فوق خشب السرير . والصوان انعكس وضعه فالتصق بابيه
 بالجدار . وقلبت المقاعد على ظهورها . وطوت السجادة
 الصغيرة ثم علقت بدوابة بسلك المصباح الكهربائى . وندت
 عن الام صرخة رثاء وهتف الاب :

- كارثة ٠٠ كارثة وربي !
 وسالوه جميعا عما فعل ؟ وكان يقف وسط الحجرة هادئا
 وباسما فلم يزد عن أن تساءل بدوره :
 - ولم لا ؟
 وصاحت الأم :
 - أنت تمزق قلبي ٠٠
 فقال برقة :
 - آسف على ازعاجكم ٠
 فقال الأب بحسرة :
 - غير معقول ٠٠ غير معقول ٠٠
 - لم لا يا بابا ؟ ! ، كنت أقوم بتجربة ، ولو أمهلتُموني
 لكان ذلك عين العقل ٠٠٠
 وغادر الحجرة الى الفراندا ، وتبعه والده فوجده واقفا
 ينظر الى السماء باهتمام بالغ ٠ ونظر الرجل حيث ينظر فلم
 ير شيئا فازداد انقباضا ثم سألته برقة :
 - أتعبت رقبتك ، لم تنتظر هكذا الى السماء ؟
 وأهمله طاهر حتى كرر سؤاله مرتين ، ثم قال بضجر :
 - انى أحسدها على ما تتعم به من حرية !
 فقال الأب محذرا :
 - لكنها مستقر أدق نظام فى الوجود ، النظام الذى
 لا يخطئ ٠٠
 فانزعج طاهر وخفض عينيه غاضبا ٠٠
 - ألا تحب النظام يا طاهر ؟
 فقال بحدة :

— لا أحب لشيء أن يتكرر مرتين ٠٠ !

— لكنها الفوضى يا بني ٠٠ !

فهتف الشاب :

— ما أجمل هذا !

وتشاور الوالدان فأجمعا على وجوب البدء فى العلاج دون إبطاء ولو ضاع العام الدراسى • واتفقا على أن يستشير طبيباً باطنياً أول الأمر ، على أن يذهب بعد ذلك الى طبيب أعصاب ان نصح الباطنى بذلك ، ثم الى طبيب نفسانى ان لزم الحال •

وكان الوالدان فى الحديقة يستقبلان بعض الضيوف ، وسمير وهدى يذاكران ، عندما سمع الجميع ضجة فى الطريق وتدافع أقدام فى الداخل وصراخ الخادمين •

وتبين أن النار مشتعلة فى الطابق العلوى • وانطلقوا جميعا الى الطريق وأحد الخادمين يحمل طاهر بين يديه • وجاءت المطافئ فأخمدت النار قبل أن تستفحل • وقال طاهر فى التحقيق ببساطة مذهلة :

— نعم ، أنا الذى سكبت البترول وأشعلت النيران ٠٠

ولما سئل عن السبب أجاب بالبساطة نفسها :

— لا أتذكر ٠٠

ثم لاذ بالصمت •

وانطلقت سيارة المستشفى • جلس طاهر مقيد اليدين والقدمين بين والديه على حين جلس أمامهم مندوب المستشفى :

– كم رأينا من حالات أشد من هذه ثم عاد أصحابها
كأنقل ما يكون •

وأراد الأب أن يقول : « ان ذهاب العقل كارثة لا تعادلها
كارثة » ولكنه لم ينبس • وساءل نفسه : « ما معنى هذا ! • •
وهل ثمة خطأ ؟ » كان بيته – وما زال – معبدا للعقل وللنظام
فكيف تسلل اليه الفساد ؟ • وحز الألم في نفسه حتى تنابت
تأوهات الباطنية وحتى حسد زوجته على سخاء عينيها •
ولحظ الابن العزيز بطرف عينه فرآه قد أغمض عينيه فعض
على شفته •

وتطوع المندوب للتخفيف من كآبة الجو فقال :
– المستشفى خير مكان له فلا تحزننا لذلك الاجراء الذي
لا بد منه • •

ولم تكن لدى حسن دهمان رغبة في الكلام ولكنه أراد أن
يجامل الرجل بقدر ما يستطيع فتمتم وهو من الحزن في
غاية :

– صدقت يا سيدي ، هذا هو عين العقل •

الضمّت

ما أفضح هذه الحجرة • كميذان قتال • لا ترى العين فى
 أى موضع منها الا سلاحا يقشعر منه البدن • وهو لا يعرف
 الا المقص ولكن المعرض حافل بما يشبه السكاكين والخناجر
 والدبابيس من كافة الاشكال والأحجام • وثمة أوعية ملوثة
 بالدم تحت الموائد المعدنية • وقطن وشاش ، ورائحة أثيرية
 نافذة كنذير من عالم مجهول ، وثلاثة أطباء • الطبيب المولد
 وطبيب القلب وطبيب التخدير ، وممرضة بدينة لكنها فى خفة
 النحلة ولا تمسك عن الحركة • لم ير الأشياء الا خطفا على
 حين تركزت عيناه فوق السرير المرتفع حيث ترقد زوجته
 مطوونة بالصراع ، مرفوعة الساقين فوق حاجز قائم فى
 نهاية السرير وقف وراءه المولد فى معطفه الأبيض ، لا يبدو
 منه الا نصفه ، ويشئ أعلى نراعه بحركة يده المختفية •
 وراحت زوجته تقلب رأسها يمنة ويسرة كاشفة كل مرة عن
 خارض من وجهها المتقيض من الألم ، الذى استقرت فى
 صفحته زرقة مغبرة • آه • حتام يطول الصراع ؟ ، متى
 يوجد بالراحة الرحمن ؟ • ويد الطبيب لا تكف عن الحركة ،
 وهو ينظر نحوه أكثر الوقت ، فى بساطة واستهانة وبيتسم
 ولا ينقطع عن الكلام ••

— ما أعظم الفارق بين صورتك الحقيقية وصورتك على
 الشاشة !

هز رأسه وهو ينتزع من شفتيه الجافتين ابتسامة مجاملة،

واضطر فى ذات الوقت أن ينزع عينيه من الوجه المعذب
ليبادل الطبيب نظرة بنظرة على سبيل المجاملة أيضا •

— ما أبدع الفن ! ، وفن التمثيل هو سيد الفنون فى
نظرى ! ، أنك تضحكى من أعماق قلبى ، لا أحد يضحكى
هكذا ولا الأمريكيون أنفسهم ، ودور الباشكاتب فى فيلمك
الأخير دور عجيب حقا ، تفوقت فيه على نفسك !

لاحظ فى عينى الطبيبين الآخرين ابتسامة ، واسترقت
المرضة اليه نظرة باسمه كذلك ، تحية لدور الباشكاتب •
ونظر الأستاذ صقر نحو زوجته على أمل أن يكون الحديث قد
لطف من كريها ولكنه وجدها غارقة فى دنياها الخفية فساءل
نفسه متى ينتهى عذابها ؟ ، ومتى يرحمه الطبيب فيتكره
لنفسه ؟ • وإذا بالطبيب يخاطبها قائلا :

— ساعدينى ! ، يجب أن تساعدينى كما قلت لك مرارا ،
سدى حيلك وأرينى شطارتك !
وهمست بصوت هو الأنين :

— لا قوة لدى ••

— بل لديك قوة عظيمة ، وإن تتم الولادة إلا بمساعدتك ،
أفهمى ذلك جيدا ، أنا فى انتظار صوتك !

استجمعت قواها الخائرة ، تتابع الصراخ فى قوة لا بأس
بها ولكنه سرعان ما وهن فتقهقر الى أنين مبجوح • وزادت
يد الطبيب حركة • وعاد يقول :

— والفيلم فى جملته ممتاز أيضا ، قرأت مرة فى مجلة أنك
تشتراط قبل التعاقد على دور أن تطلع على السيناريو •• ؟
انتزع عينيه من زوجته مرة أخرى وقال :

— نعم ••

— لكن ما معنى السيناريو ؟

يا للعذاب !



- هو اعداد القصة للسينما ..
- انا أفكر على موقفك ، يجب أن تقرأ السيناريو أولا
حتى تضمن لمهبتك فيلما يناسبها ..
- شكرا .. شكرا ..

وتأوهت المرأة تأوهات متقطعة فقال الطبيب معاتبا :
- لا .. لا .. ليس هذا ما أريد ، الست هي التي تولد
نفسها !

ومال الأستاذ صقر فوق أذنها هامسا :
- شيئا من التعب يا عزيزتى كى يجيء رينا بالقرج !
فقال الدكتور ضاحكا :
- أطيعى كلام هذا الرجل المسئول ! .. (ثم ملتفتا نحوه)
لم أعرف أنها كانت زميلة لك فى المسرح الا عن طريق احدى
المجلات أما انا فلم أرك فى المسرح ولم أرها كذلك لأننى لست
من رواد المسرح ..

ثم بعد هنيهة صمت :
- أنت لست معى !
فانتبه صقر قائلا وقد تكاثف عذابه :
- معك يا دكتور !
- خبرنى ما أحب أدوارك اليك ؟
رياه انها لا تجد قوة للطلق ، ولكن ينبغى أن يكون الخطر
بعيدا والا ما استرسل الدكتور الذى لا يرحم فى استجوابه :
- ماذا قلت ! ، أحب الأدوار اليك !
- لعله دور العسكرى ! ..
- تعنى فيلم حريقة بلا نار ؟ .. لا .. لا ..

وانفجر صراخ من الأعماق ، تصاعد حارا مليئا كأنما
يقذف بفتات الصدر والحلق . واستحثها الطبيب على المزيد



... ونظر الأستاذ صقر نحو وجه زوجته على
أمل أن يكون الحديث قد لطف من كريبها ولكنه
وجدتها غارقة في دنياها الحقيقية ..

وهو يتركز فى حركة يده الآخذة فى السرعة • وأعقب ذلك تأوه عريض مرتفع ما لبث أن هبط الى درجة الأنين ثم انداح فى الصمت ونقل صقر بصره من الوجه الأزرق المغبر الى الساقين الى وجه الطبيب وتساءل ترى أهو الختام المريح !؟ . واقترب طبيب القلب فجس النبض أما المولد فتراجع خطوة ثم خلع معطفه والقفاز ودار حول السرير حتى وقف أمامه باسم • همس صقر :

— الحمد لله ؟

— الحمد لله دائما • • تعال • •

ومضى الى حجرة داخلية فتبعه ، وهناك قال الطبيب :
— ضاعت الجولة هباء ، ولن يعاودها الطلق قبل أربع ساعات على الأقل • •
ثم وهو يهز رأسه :

— وإذا لم تتيسر الولادة بحال طبيعية فلا بد من جراحة ..
— جراحة !

— لم لا ؟ ، القلب سليم ، وليس بها أمراض ، ألم أنصحك
آخر مرة بتجنب الحمل ؟ ! •

بهت صقر • ومضى الى الصالون فجلس بين أعضاء الأسرة التى تلقت الخبر بانزعاج حقيقى • وذهبوا الى حجرة الزوجة فوجدوها نائمة فى نوم عميق فعادوا الى مجلسهم • وضاق صقر بالجلسة وشعر بحاجة ملحة الى الحركة • استقل سيارته الدودج الى قهوة الشمس ، قهوة الزملاء ، وإن لم يأمل فى العثور على أحدهم فى تلك الساعة من الصباح • وعند مدخل القهوة ناداه صوت قوى فمضى الى صاحبه وجلس الى جانبه فى الممر المكشوف تحت سماء مجللة بسحب الخريف • تربع جميل الزيدى فى مجلسه تحوطه هالة من

الفخامة مصدرها بدأنته المتناسقة ، وهو زميل قديم لصقر من عهد المدرسة الابتدائية ، أما اليوم فهو من الأعيان وعشاق المسرح . وكان صقر فى حاجة حقيقية الى المشاركة الوجدانية فقال :

ـ اطلب لى فنجال قهوة فانى فى حالة اغماء !

فطلب له القهوة وهو يتساءل :

ـ ما لك كفى الله الشر ؟

وأعاد على سماعه ما قال الطبيب فلم يبد عليه أنه اهتز أقل اهتزاز لكلمة « الجراحة » وقال ببساطة :

ـ سليمة بأذن الله ، والنساء يلدن من عهد حواء فلا

تخف ..

ـ المسكينة تتألم بدرجة فظيعة ، ويقولون إن الجراحة

خطيرة ..

فتناول الرجل شوية فول سودانى من طبق فنجال ممتلىء وهو يدعوه الى مشاركته ثم قال :

ـ اشاعات يروجها الأطباء ليبرروا مطالبهم ، الطالب هى الخطيرة حقاً ...

وضحك لذكرى وردت للمناسبة وقال قبل أن يفتح صقر فاه :

ـ عند مولد ابنى اسماعيل أتعلم ماذا حدث ؟

حنق صقر على مولد اسماعيل الذى اقتحم عليه أعذابه وأجل عزاءه المأمول لوقت لا يعرف مداه !

ـ ولدته أمه فى ثمانى عشرة ساعة ! ، جاءها الطلق الساعة السادسة صباحاً وأدركها الفرج عند منتصف الليل ! ،

أى عذاب تتخيله ؟ ، ومع ذلك كله فقد ولدت فى البيت وبوساطة حكيمة لا دكتور ولا دياولو !

فهز صقر رأسه كأنما يتذوق عبرة حقيقية ، ثم تساءل :

— لكن ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟
— تهريش أطباء ، هذا مدى علمي ، هل عندها ضغط أو زلال أو سكر ؟
— كلا ..

– اذن فهي لا شيء ، وقد قالوا لنا عند مولد ابنتي عزيزة انه لا بد من جراحة ! ، لماذا ؟ ، الحكاية ان الولادة طالت أكثر من المتوقع فاستعانت الحكيمه بـدكتور فنصح بنقلها الى المستشفى لاجراء جراحة عاجلة ، وقبل أن يبتعد مترا عن بيتنا جاء القرح !

تابعه بنظرة مغيظة وهو يطحن الفول السوداني **هَلْذَنْ**
عجيب ، وإذا به يقول مسترسلا في ذكرياته :

– الولادة العسيرة حقا كانت ولادة سوسن ابنة أختي !
نظر صقر الى الأرض ليخفي كربه فواصل الآخر حديثه :
– كانت ضعيفة القلب ، وأجمعوا على إجراء جراحة ،
واستكتبوا زوجها اقرارا بالموافقة ، وشقوا بطن البنت ٠٠
– شقوا البطن ؟

فضحك جميل قائلاً :

– هي الآن بفضل الله كمفتشات الرياضة البدنية !
وخيل اليه أنه سيدخل في حديث ولادة أخرى فقام الى
التليفون وسأل عن الحال فجاءه الجواب بأنها نائمة في هدوء
تام . وعاد الى مجلسه كارها فقال له جميل :
– يجب أن تعود الى المسرح ، أنا لا أحب السينما ، وإن
شئت فاعمل في الاثنين ولكن لا تنقطع للسينما !
فتمتم بفتور :

- أنا هجرت المسرح منذ أكثر من عشرين سنة !
- ولو ! ، هذا رأى الأستاذ سمير عبد العليم أيضا ،
وعلى فكرة قابلته قبل مجيئى الى القهوة مباشرة وكان يسأل

عنك ، والظاهر أنه اتصل بك فى المنزل حينما كنت فى
المستشفى ٠٠

— ماذا يريد ؟ ٠٠ ألم يقل لك ؟

— أبدا ، مطالبه لا تنتهى كما تعلم ولكنه ظريف وابن
حلال ٠٠

استقل سيارته الى مجلة « كلام الناس » حيث وجد صديقه
الناقد سمير عبد العليم يكاد أن يختفى وراء الأوراق المكسدة
فوق مكتبه ٠ تعانقا وسمير يقول :

— بحثت عنك فى كل مكان ، أين كنت ؟

فجلس وهو يقول مرحبا بالفرصة التى واثته لاعلان
أحزانه :

— كنت فى المستشفى ، راضية فى حالة ولادة !

هنا بصوت خطابى وهو ينكب على الأوراق باحثا عن
شئ هام فيما بدا ، فقال صقر :

— ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجرادة !

والظاهر أن سمير لم يسمعه لشدة انهماكه فى البحث
غير أنه قال بمرح :

— نحن نطالب بولى عهد للمسرح الكوميدى !

فرقع صقر صوته قائلا :

— ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجرادة !

انتبه سمير اليه وقد كف عن البحث لحظة فأعاد صقر
على مسمعه أقوال الطبيب فقال الناقد :

— ربنا يكتب لها السلامة ، الطب تقدم وانقضى عهد
الجراحات الخطيرة ٠٠٠

ثم انهمك فى البحث مرة أخرى وهو يقول :

— أنا نفسى جئت الى هذه الدنيا بجرادة ، وفى زمان كان

الطب فيه كالطب عند قدماء المصريين ، يا سلام على الفنانين
وأعصابهم المزهقة .

ونبت عنه آفة ارتياح لعنونه على الأوراق التي كان
يجد في البحث عنها ، وأخذ يرتبها بعناية وهو يقول بنبرة
جديدة دلت على أنه نسي الحديث الأول تماما :

— اتفقت مع صوت العرب على برنامج جديد أسبوعي
باسم « أهل الفن » واخترت أن أبدأ بك ..

— لكن يقولون إن جراحة الولادة خطيرة يا سمير ؟

— لا شيء خطير البتة ، وستضحك غدا من قلقك هذا بملء
فيك ، المهم أن هذا البرنامج يقتضى تسجيل مناظر من
مسرحياتك القديمة ، الأفلام أمرها سهل ويمكن تسجيلها في
أى وقت أو طبع نسخ جديدة من الفصول التي يتفق عليها .
ولكن المسرحيات كيف نسجلها ، كيف نجتمع الممثلين
القدامى ؟ ، ومن يحل محل الذى مات منهم ؟ .. هذه المشكلات
ومثيلاتها تشغلنى طيلة الوقت ..

أوشك أن يغضب ولكنه استسخر نفسه فانزوى فى وحدة
حالكة .

— ما رأيك فى هذا النظام ؟ ، سابدأ بمقدمة عنك ألقها
بنفسى ، يعقب ذلك حوار بينى وبينك أنا أسأل وأنت تجيب ،
يتخلل ذلك مناظر من المسرحيات ومواقف من الأفلام ، ثم
جلسة عائلية فى بيتك ، ولكن أه .. راضية ستكون متوعة
ربنا يشفيها ؟ !

— آمين ، ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟

— كل خير ، لا تصدق الأطباء ، الصعوبة الحقيقية فى
تسجيل المسرحيات القديمة ، اتصلت بكثيرين من الممثلين ،
ولكن هل لديك أصول المسرحيات ؟ !
ولما لم ينبس قال سمير :

- أنت لست معي !
 - معك ، عندى الأصول ، عن أنثك التليفون ٠٠
 وكرر السؤال عنها فتلقى نفس الجواب ، وأعاد السماعه
 مغغما « يا رب » ٠ وقال سمير :
 - تعال لمقابلتى فى الاذاعة مساء الأحد ٠٠
 - ربنا يطمئنى أولا ٠٠
 - ان شاء الله ، لا تكن خوفا هكذا ، الا ترى أنك تذكرنى
 بدور الباشكاتب الذى تفوقت فيه على نفسك !
 عاد الى قهوة الشمس فوجد أن مجلس الزملاء قد انعقد
 كشأنه ظهر كل يوم ٠ وصمم على ألا يعلن شكواه لأحد
 فجاراهم فى أحاديثهم بقلب غائب واشترك أحيانا فى
 قهقهاتهم التى ترج القهوة فى تلك الساعة من النهار ٠ وعند
 الواحدة قاموا ليتناولوا الغداء فى المقطم ، دعوه للذهاب
 معهم فاعتذر فمضوا الا واحدا هو حيدر الدرمللى ، وهو
 زميل قديم عمل فى مسرحه ملقنا ويشغل اليوم مدير إنتاج فى
 شركة سينمائية ٠ ولم يدر بالسبب الذى جعل حيدر يتخلف
 عنهم حتى قال هذا بقلق :
 - ظهرت نتيجة تحليل الدم وهى ليست على ما يرام :
 تذكر أنه شكا اليه مرضا ألم به منذ عشرين يوما فى أحد
 الاستديوهات فقال له معتذرا :
 - آه نسيت أن أسأل عن صحتك بسبب زياط اخواننا
 وتهريجهم ، آسف يا حيدر ، أنا شخصا فى كرب عظيم !
 واضطر حيدر الى تأجيل الكلام عن تحليل الدم الى حين
 وسأله :
 - لم والعياذ بالله ؟
 فحدثه عن حال زوجته حتى قال حيدر :

- أسأل الله لها السلامة ، ولعل الولادة تتم دون جراحة ،
ولكن خبرنى ماذا تعلم عن زيادة كريات الدم البيضاء ؟
- لا أدرى ، وعلى أى حال فالطب تقدم جدا ، فوق ما
تنصور ، ولكن ٠٠ ولكن أنا المستول !
- أنت ؟ !

- نعم ، كان يجب أن أحتاط فلا أسمح بالحمل مهما تكن
الظروف ٠٠

هز حيدر رأسه فى امتعاض وهو يتكلف الاهتمام بكلام
الآخر تكلفا ولكنه لم ينبس بكلمة فقال صقر :
- ولما وقع المحذور كان على أن أجهضها بأى ثمن ، وهاك
نتيجة الإهمال ٠٠

فتبسم حيدر وهو يجول فى المكان بنظرة ذاهلة :
- دنيا ! ، يعنى أنا كان مالى ومال الكريات البيضاء !
- على رأيك ! ، وهل تدري ماذا تعنى جراحة الولادة ؟
شق البطن !

- ربنا لطيف بالعباد ، وهل تدري أنت أن مرضى يجله
أطبائنا ويقفون حياله حيارى ؟

- لا تتشامم ، ربنا لطيف بالعباد كما تقول ، والا فمن
لأم تتعذب هذا العذاب وهى تهب الدنيا مولودا جديدا ؟ !

وأجهدهما الكلام فيما بدأ فلاذا بالصمت ، واندفن كل فى
ذاته فاجتر أحزانه وحده ٠ ونظر صقر فى الساعة ثم طلب
القهوة الرابعة مذ غادر المستشفى وأشعل السيجارة العاشرة.
وتساءل عما يخبئه له اليوم ! ٠ وتجنب صاحبه كما تجنبه
صاحبه فقام بينهما سد ٠ وقال صقر وكأنما يخاطب نفسه :

- انى أعجب كيف أنى أكرس حياتى لاضحاك الآخرين !
فتساءل حيدر بنبرة باردة :

— ألا يدقعون ثمن ذلك بسخاء ؟
ولم يناقشه رغم ما بدا له من امكان ذلك • وعاد ينظر
فى الساعة ويتساءل عما يخبئه له اليوم •
وأغمض عينيه فشعر بشيء من الراحة ولكن ضوضاء
الطريق ضايقته كما لم تضايقه من قبل فود لو يفرق كل شيء
فى الصمت ••

بيت سري السبعة

كان منهمكا فى عمله عندما استأذنت سيدة فى مقابلته ،
وجلست وهى تقول :

– صبا ح الخير يا أستاذ أحمد ..

سيدة واضحة الكهولة ، مقعرة الخدين من ذبول ، بارزة
الفم ، تعكس عيناها نظرة متعبة ، وتضفى عليها ملابس
الحداد تجهما وكآبة . وسرعان ما أدرك من مطلع حديثها أنها
قصده بأمل أن يسهل لها الاجراءات الخاصة بمعاشها .
وهمّ بتحويلها الى مدير المعاشات مشفوعة بتوصية غير أن
لمحة فى نظرة عينها المتعبتين استرعت انتباهه . خيل إليه
أنها ترمقه بنظرة خاصة تراوح بين الارتباك والخجل . ما سر
ذلك يا ترى ؟ ، هل تعرفه ؟ وفى الحال ومضت فى ذاكرته
ومضة أضاءت غياهب الماضى فهتف فى ذهول :
– حضرتك .. ؟

قالت وهى تغض بصرها فى حياء وتأثر :

– نعم ، ومن حسن الحظ أنى عرفت أن حضرتك مراقب
عام المستخدمين !

ولم يكن تذكر اسمها ، ولكن وثب الى ذهنه اسم التذليل
الذى عرفت به : « ميمى » . ان منظرها أكبر من عمرها .
وعمرها لا يمكن أن يجاوز الخمسين . ولمسه من الذوق أن
يخلق سببا لعدم معرفتها بالسرعة التى – لا شك – توقعتها .
قال :

– كنت مشغولا جدا فنظرت اليك بعينين غائبتين فلم
أعرفك ..

فابتسمت عن طاقم تضيد وقالت :

— أنا تغيرت أيضا ، الضغط ربنا يكفيك شره ، والحياة
لنهكت أعصابى ، لى بنتان متزوجتان ، وثالثة فى بعثة ،
وعندما وصلنا الى بر الأمان توفى المرحوم زوجى ..
وتبدلا السؤال عن الأمرتين فتردد ذكر من تزوج ومن
مات ومن يقيم فى القاهرة ومن انتقل الى الأقاليم ، وكان فى
أثناء ذلك يحاول أن يستحضر صورة ميمى القديمة بصعوبة
لا تكاد تقهر فاحتج مرات على قسوة العيش . وأخيرا كتب
لها توصية الى مدير المعاشات وانتهت المقابلة .

عاد الى مجلسه — بعد أن أوصلها الى الباب — وهو يعيش
فى حلم . ويبحث فى ضباب الحلم عن عام . أى عام يا ترى ؟
١٩٢٥ . عام ملئ بالأحداث التاريخية ولكن ميمى كانت أهم
من تلك الأحداث جميعا ، ميمى وينتها العجيب ، ومنشية
البكرى القديمة الراقدة فى صحراء البنديرة ، شارع الملوانى ،
والبيوت الصغيرة ذات الدور أو الاثنين تصطف على جانبيه ،
ومن أعالى الأبواب الخارجية تتدلى مصابيح للاضاءة ليلا .
كل بيت ينطوى على نفسه كالسر . النساء عورة والحب
حرام ، والزواج اجراء من اختصاص الرجال والعروس آخر
من يعلم . غير أن بيت آل حلاوة خرق العقل والمعقول رقما
وحده ككلمة متحدية . عرف بالبيت السيئ السمعة وأحيط
بسياج من الرهبة . ومجرد جريانه على لسان صبي أو بنت
كان جريمة يستحق من أجلها الزجر . وضربت حوله المقاطعة
كانه ويا . وحتى اليوم لا يذكر الا مصحوبا بعسوء الظن
وبذلك تحدد فى التاريخ . آه .. كيف كان ذلك ؟ !

كانت ربة البيت — وهى زوج لموظف كبير — امسرة
متبرجة . تبدى فى الطريق فى كامل زينتها عارضة حسنا
رائقا رغم بلوغها الخمسين ، وهى السن التى انتهت عندها
ميمى . وكانت أول امرأة فى الحى ترى سافرة فلا برقع ابيض

ولا أسود . وقد تصطحب معها بناتها الأربع فتمضى بهن
سافرات كذلك ، أخذات زينتهن ، وهو ما لم يسمح به لبنت
قبل خطبتها . وكن يذهبن مرة فى الأسبوع - مع الزوج أو
دونه - الى سينما كوزموجراف ، وقد يسهرن فى مسرح من
المسارح فلا يرجعن قبل الواحدة صباحا . أى امرأة وأى
رجل وأى بنات ! . والأدهى من ذلك كله أنه كان للأسرة يوم
زيارة تستقبل فيه بعض الأسر بكامل هيئتها فيختلط الجنسان
بلا حرج : وكان شبان الحى يسكرون جماعات تحت حبرة
الاستقبال المتلألئة بالأنوار ، يصفون الى الضحكات
المتصاعدة ، وعزف البيان ، والغناء ، وكلما ظهر فى النافذة
طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا فى التساويل كل
مذهب وتخيلوا أعجب المواقف . لذلك كله لم يكن غريبا أن
يذكر بيت حلالة مقرونا بلفظة « دعارة » دون مناقشة .
وكانت الأسرة على علم بأراء الجيران ومشاعرهم ولكنها لم
تكثر لذلك أدنى اكتراث ، وقرفت الهائم عن الجميع وسارت
فى طريقها شامخة الأنف كأنها من سلالة غير سلالة الحى
جميعه .

وكانت ميمى ترى كثيرا فى الطريق أو فى مكان الطوى .
ترى وحيدة وكانت صفرى البنات وفى الخامسة عشرة وكانت
جميلة كاخواتها وأما وان لم يعد يذكر من أى ملاحظتها الا
شعرها الأسود المتجمع فى ضفيرتين رiantين وعينين
خضراوين وغمازة فى النفن . وكان يسرقق اليها نظرات
دهشة متسائلة مليئة بجيب الاستطلاع ، ولم تخل أول الامر من
ازدراء وسخرية ثم حل محلها اعجاب واقتتان فكان يقول
لنفسه محزونا : « يا للخسارة » . وشغف بها وكان يكبرها
بعام أو اثنين ، واحتفظ بسره لنفسه قطعا للالسة ، وكان
البعض يفازلها طمعا فيها باعتبارها صيدا سهلا ولكنه لم



.. وان لم يعد يذكر من آى ملاحظتها الا شعرها الاسود المتجمع
فى ضفيريّتين ريانّتين وعينين خضراوين وغمازة فى الذقن ..

يكن عرف الاستغلال قلبه • وذات مساء وهبته نظرة على غير انتظار • كانا واقفين بركان الحلوى فوهبته نظرة غير قصيرة أثملته فترنج بعيدا عن تيار الزمان وأقعمت قلبه بهجة ظافرة .
فاض قلبه بسعادة مشرقة اقتلعت منه الوسواس فلم يعد يشترك في الأحاديث البهيمية عن البيت السيئ السمعة •
وآمن بأن شعور قلبه الأصيل أخطر من جميع ما يقال • وفى ليالى رمضان راح يلاعبها من بعيد بكبريت ألها فيشعله فى الطريق فتشعله بدورها فى النافذة • وتواعدا على اللقاء عند صحراء البنديرة • ووجد نفسه عند اللقاء مرتبكا حقا ولكنها بادلته التحية دون تلثم وبشجاعة ردت اليه روحه الضائعة .
وقالت :

— أنت فى البدلة أرشق مما تظهر فى الجلباب وأنا أحب الرشاقة !

وكل كلمة جادت بها كانت كشفا جديدا وجراة مذهلة •
وكانا صغيرين جدا بالقياس الى خلفية الصحراء المترامية وراءهما ورغم ذلك قال فى حذر :

— قد يرانا أحد !

فقساملت :

— مثل من ؟

— من الأهل أو الجيران •

فهزت منكبيها استهانة وهواء الصيف المنعش يهفو بضفيريتهما ثم سأله :

— ما رأيك فى حديقة الحيوان ؟

وامتنع عن تقبيلها تأدبا رغم سنوح الفرص • وأعطته رقم التليفون ليتفقا فى الوقت المناسب ولعله ما يزال مسجلا فى دفتر المذكرات القديم • وسأله :

— هل نذهب الى الحديقة معا ؟

فقال برجاء :

— نلتقى هناك ونفترق هناك !

وتلاقيا عند باب الحديقة وكان يوم سعيد • سارا من
ممشى الى ممشى بيدين مشتبكتين • واستمد من مسها تيارا
من الحرارة والبهجة والرضى وسالها كأنما ليطمئن عليها :
— ماذا قلت لماما ؟

فأجابت ببساطة :

— قلت انى ذاهبة الى حديقة الحيوان !

فتسائل أحمد ذاهلا :

— وحدك ؟

فهزت رأسها نفيا وقالت بالبساطة نفسها :

— معك ••

فضحك معلنا عدم تصديقه ولما وجدها جادة جدا سألها :
— وهل وافقت ؟

— نعم ! ، ولكن دون حماس ••

لم يدر كيف يصدق هذا كله أما هي فاستطردت :

— قالت لى ابتعدى عن هذا الولد ، انه كالأخرين ، وأهله
كبقية الجيران ••

وشعر بأنه مطارذ • ووقف طرفه الحائر عند رأس نعامة
سارحة فى الفضاء من فوق الحاجز الحديدى •

ثم قال بقلق :

— انن هى تعلم أننا هنا معا •• !

— وراهنتنى على أنك ستخيب رجائى ••

— كيف ؟

— من أدرانى ؟

بل هى تدرى ولكنها تظاهرت بالاهتمام بالقرود ، ثم

وقفت فوق قنطرة تتأمل الماء المسكوف بأوراق الشجر ،
واقترحت أن يعدوا حتى الجبلية ولكنه شد على يدها قائلاً :
- خبريني !

فنظرت في عينيه بجرأة وقالت :
- أنت لا تصدق أنها تعرف أننا هنا معا ولكنك تعلم
بزواج أخيك الأكبر من ثلاث في وقت واحد !
فاحمر وجهه وقال :
- هو حر . .

- لا تغضب من فضلك ، ففضبك يؤكد ظنهما ، هل عرفت
الآن ما سألت عنه ؟

وداخله حزن . الواقع فاق ما تخيله . انهما من عالمين
بعيدين . ورغم ذلك ازداد بها هيما .
ثم تسأل بصوت منخفض :

- وكيف وافقت على هذا اللقاء ؟

- لم لا ؟ هو عيب ؟

ولم ينبس فسأله بسخرية خفيفة :

- ولم وافقت عليه أنت ؟

فلم ينبس أيضا فسأله :

- أوجب أن نفترق ؟

فاستعطفها بحرارة لتعود إلى الرضى وقال معتذرا :

- لا تغضبى ، أنا أخطيء كثيرا وعذرى أنى أقابل بنتا
لأول مرة !

فرمقته بتوجس وتساءلت :

- وماذا تظن بى أنا ؟

فبادرها تجنباً للمضاعفات :

- كل خير ، أنا . . ، أنا أحبك يا ميمى . .

وابتسمت • ومضت به الى أريكة تمتد أمامها هضبة
معشوشبة تناثرت فى جنباتها مجموعات من البشر فجلسا
جنباً الى جنب صامتتين ، حتى قطعت الصمت قائلة :
- حدثنى عن مستقبلك ••

وتحدث عن مستقبل مشرق من خلال كلية الحقوق وان
يكن أوشك أن يختم حياته مراقباً للمستخدمين لا مستشاراً
فى النقض كما حلم • فقالت :
- هذا جميل حقاً ، ولكن ماذا عنى أنا ؟

ووجد نفسه فى القفص كالحيوانات التى تحيط به من كل
جانب فقال فى اقتضاب شديد حدوته الرهبة :
- الزواج ••

فابتسمت وهى تحول وجهها عنه مادة بصرها الى قمة
الهضبة الخضراء وقد غابت عن مسمعه ضجة الأصوات
الآدمية والحيوانية • ثم قالت وهى ما تزال تنظر الى بعيد :
- ولكن أمامنا أعواماً طويلة ! •• كيف ••• ؟
فقال وهو يتلمس متنفساً :

- لا بد من الانتظار حتى انتهى من الدراسة ••
- سانتظر بكل سرور ، ولكنى فى حاجة الى شيء يبرر
انتظارى أمام الآخرين ، أى شيء ، ارتباط من أى نوع ؟ !
تخيل طلبه الارتباط ببنت من البيت المسير السمعة
بتعاسة ورعب ، وإنعقد لسانه فلم ينطق ••
- ماذا قلت ؟

- من المسير حقاً أن أطلب، ذلك الآن ••
- ألا تقدم على هذه الخطوة من أجلي ؟
فتنهذ بصوت مسموع وهو يشعر بأنه جرى مرحلة طويلة
من التاريخ دون توقف ، فقالت بحدة :

— أنت لا تريد ، ليس عندك الشجاعة الكافية ، أبيتنا
مخيف الى هذه الدرجة ؟

— لا ٠٠ الأمر وما فيه ٠٠

— لا تكنب ، أنا أعرف كل شيء ، وماما لم تخطيء ،
وشارعنا كله سخافة فى سخافة ، ونحن أشرف من الجميع ،
يجب أن تعرف ذلك ٠٠
فهتف مثالما :

— انك تسيئين بى الظن ، أنا فى حاجة ٠٠ ، أرجو أن
تقدرى موقفى ، أعطينى ٠٠

— لا داعى لهذا الارتباك كله ، لمتنس كل ما قيل ، كله
سخيف من أوله الى آخره ٠٠

— لكننى أحبك ، ليكن الأمر سرا بيننا حتى ٠٠

— نحن لا نحب السر !

— حتى أقف على قدمى ! ؟

— إن تقف على قدميك أبدا ٠٠

ثم وهى تكاد تمزق منديلها الصغير من الانفعال :

— أعوذ بالله ! ، أنا لا أحترم أحدا فى شارعنا ! ٠٠ بلا
استثناء ٠٠ بلا استثناء ٠٠

هكذا انفصلا الى الأبد .

وكان يستقبل سيل الذكريات وهو ينظر الى الكرسي الذى
طالعه منه بوجه لم يحفظ من ماضيه الا أضعف الأثر . امرأة
أضناها التعب والحداد ولكنها معتزة بانتصارات حقيقية .
وحومت حوله الذكريات كآسراب من البنفسج . تذكر كيف
تزوجت بنات البيت السيئ السمعة واحدة بعد أخرى رغم
ما سمع مرارا وتكرارا بأنهن بنات لم يخلقن للزواج ولن
يسعى الى الزواج منهن أحد . وكلما جاءه نبأ عن توفيقهن
فى زواجهن ذهل واختلت موازينه ٠٠ !

ومضى الى بيته بعد ميعاد انتهاء العمل الرسمي فتعدى
ونام ليستعد لسهرة فى الاوبرا دعى اليها هو وزوجته وبناته
الثلاث . وكان الداعى زميلا لكبرى بناته الموظفة فى ادارة
الترجمة بالوزارة وقد قبل الدعوة رغم أن الداعى لم يرتبط
بكريمته بأى ارتباط بعد ! . وعند المساء خلا الى نفسه فى
حجرة مكتبه على حين نشطت الزوجة والبنات للاستعداد
لسهرة الباليه المنتظرة ، عما قليل يتبدى فى صورة كاملة من
الزينة والاناقة ثم يتقدمنه تحت الاضواء والأنظار ترمقهن
بأعجاب ! . ولم يكن غريبا أن يستخرج دفتر مذكراته القديم
من الدرج الخاص بالأوراق الثمينة كعقد ملكية الأرض
وبوليصة التأمين . وكان اعتاد على عهد المراهقة - وهو
عهد كان يحلم فيه بعرش الزجل ! - أن يسجل أحداثه
العاطفية والاجتماعية يوما بعد يوم . وفرّ صفحاته ليرجع
الى عام ١٩٢٥ وما حواليه حتى رقم التليفون وجده . وبدافع
لم يعرف كنهه امتدت يده الى قرص التليفون فادارت الرقم
القديم . وجاءه صوت :

- آلو !

فسأله وهو يبتسم فى عبث :

- بيت حلاوة ؟

فأجاب الصوت بخشونة :

- لا يا سيدى .. هنا محل الطمبلى لبيع الخيش ..

الفنوة النخالية

(بيت سييء السمعة)

قال محمد الرشيدى بنبرة أرعشها الحزن والانفعال :
- الى رحمة الله الرحيم ، الى جوار ريك الكريم يا زاهية .
يا رفيقة عمرى ، الى رحمة الله *

وانتخب باكيا وهو ينحنى فوق الجثة المسجاة على
الفراش ، معتمدا بيمناه على الوسادة من شدة الاعياء ، حتى
رحمته الخادم العجوز هربت على يده برقة ثم أخذته منها
الى حمرة الجلوس فأسلم نفسه الى مقعد كبير وهو يتنهد
بصوت مسنوع * ومد ساقيه وهو يتأوه ثم غمغم :

- أنا الآن وحدى ، بلا رفيق ، لم تركتني يا زاهية ؟
وبعد عشرة أربعين عاما ! ، لم سبقتني يا زاهية ؟

وعزته الخادم بعبارات محفوظة غير أن منظر شيخ فى
التسمين وهو يبكى منظر محزن حقاً ، وقد التمت أخايد
خديه وحفر أنفه بالدموع ، ففادرت الخادم الحجرة وهم
تجهش فى البكاء * وأغمض عينيه اللتين لم يبق فى أشفارهما
الا آحاد من الرموش وراح يقول :

- منذ أربعين عاما تزوجتك وأنت فى العشرين ، ربيتك
هلى يدى ، وكنا سعداء جدا برغم فارق العمر ، وكنت خير
رفيق ، يا طيبة يا أنسانة ، فالى رحمة الله ..

وكان ذا صحة جيدة اذا قيس بعمره ، طويلا نحिला ،
واختفى أديم وجهه تماما تحت التجاعيد والأخايد ، وبرزت
عظامه وتحددت كأنها جمجمة ، وفى عينيه غارت نظرة تحت
غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيات هذا العالم * وأم
الجنائزة خلق كثيرون لم يكن فيهم واحد من أصحابه أو

معارفه • جاءوا يعزون ابنه أو اكراما لزوج ابنته الموظف
باحدى السفارات فى الخارج أما هو فلم يبق من أصحابه
على قيد الحياة أحد • وجعل يستقبل الوجوه التى لا يعرفها
ويتسائل أين رعىل المربين الأول ، أين الساسة الحقيقيون
على عهد مصطفى وفريد ؟ ! •

وعندما انقضى المآتم حوالى منتصف الليل سأل ابنه
صابر :

— ماذا نويت أن تفعل يا أبى ؟

وقالت له زوجة ابنه :

— ولا يجوز أن تبقى هنا وحده ••

أدرك الشيخ ما يقصدان فتشكى قائلاً :

— كانت زاهية كل شيء لى ، كانت عقلى ويدى ••

فقال صابر :

— بيتى هو بيتك ، وستحل بحلوك بنا البركة ، وستجىء

خادمتك مباركة لخدمتك •

أجل لا يمكن أن يقيم فى هذا المسكن وحده • ورغم

ما يبدى ابنه وزوجته من شعور طيب فهو يؤمن بأنه — بانتقاله

— سيفقد الكثير من حريته وسيادته ولكن ما الحيلة ؟ ! •

وكان فى شبابه ورجولته وكهولته شخصا صلبا ، وما زال

يحتفظ بوقاره ومهابته ، وكم خرج من أجبال من المربين

والشخصيات الفذة ، ولكن ما الحيلة ؟ ! • وبطرف واجم

شهد الرجل تصفية مسكنه • رأى أركانه وهى تنقوض كما

رأى احتضار زوجته من قبل فلم يبقوا الا على ملابسه

وفراشه وصوان كتبه التى لم يعد يمد لها يدا وبعض التحف

ومصور لأعضاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل

ومحمد فريد والمويلحى وحافظ إبراهيم وعبد الحى حلمى •

وغادر بيته الى مصر الجديدة فى سيارة ابنه ، وهناك أعدت

حجرة لنومه وتأهبت مباركة العجوز لخدمته • وقال له ابنه :
- نحن جميعا رهن اشارتك ••

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب • روح
طيبة حقا ولكنه لا بيت له ، ذلك كان الشعور الذي اجتاحه •
وجلس على مقعده الكبير يبادلها النظرات فيما يشبه الحياء •
وقال لنفسه لعله لو كانت سميرة ابنته فى مصر لوجد فى بيتها
أنسا الصق بالقلب • وظهر توتو عند عتبة الباب • ردد عينيّه
بين أبويه ثم جرى حتى لبد بين ساقى والده • ونظر الى جده
بتأمل فابتسم الشيخ قائلا :

- أهلا توتو •• تعال

ونادرا ما كان توتو يزور جده مع والده • وأحبه الشيخ
كثيرا ولم يقتصد فى مداعبته كلما وسعه ذلك ولكن توتو كان
حادا فى مداعباته ، فهو يحب الوثب على من يداعبه ويهدد
عينيه وأنفه بأظافره فسرعان ما تجنبه الشيخ بلطف مؤثرا
أن يحبه من بعيد • وأشار توتو الى طربوش جده الطويل
وقال :

- رأسك !

يعنى أن يخلع طربوشه ليرى صلته البرتقالية المستطيلة
المنحدرة التى جذبت انتباهه وتسأله من أول نظرة ، ولما لم
تتحقق رغبته راح يشير الى أخايد الوجه وحفر الأنف
وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لاسكاته • وقال الشيخ
لنفسه أن الطفل العزيز لن يعفقه من المتاعب وأنه سيحتاج
الى حماية ولكن أين زاهية ؟ • وساعته ومنشته وسجائره
كيف يحفظها من عبثه ؟ • وحاول توتو أن يذهب الى جده
ليحقق رغائبه بنفسه ولكن والده أمسك به ودعا لخدمته
فحملته الى الخارج وهو يصرخ محتجا • وقال صابر :

— انى أفرغ من عملى مساء ثم أذهب الى النادى أنا
ومنييرة فهل تأتى معنا ؟
فقال الشيخ :

— لا تشغل نفسك بى ودع الأمور تجرى على طبيعتها ••
وذهب صابر ومنييرة فرحب بالوحدة ليستجم ، ولكن
الوحدة ثقلت عليه بأسرع مما تصور • وألقى نظرة غير
مكتثرة على الحجرة ثم طوقته الوحشة • متى يعتاد المكان
الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية ؟ • أربعون عاما لم تخل
يوما من زاهية • منذ زفت اليه فى الحلمية ورقصت أمامهما
الصرافية • والبيت بفضل يدها ينعم بنظام ونظافة وعبير
بخور زكى • وما قيمة رمضان والأعياد بدونها ؟ • دخلت
الجنائز من أجيال وأجيال من تلاميذه فهل لم يعد يذكره
أحد ؟ ! •

ولم يكن كذلك حال الاصدقاء الذين ذهبوا • ولكنهم
ذهبوا وكأنما يراهم فردا فردا كيوم احتشدت بهم جنازة
مصطفى كامل • ورغم أنه لم يعرف الأمراض الخطيرة قط
فقد امتحنت المسكينة بالدنج والتيفود والانفلونزا وأخيرا
ماتت بالقلب ، وتركته متعلقا بالحياة كما كان دائما • وقام
الى نافذة فرأى منها بستانا كبيرا يتوسط مربعا من العمارات
مكان الجامع الكبير الذى كان يطالعه من نافذة حجرته
بالمنييرة • ولفحته نسمة هواء جافة دافئة • وعجب للصمت
المريح ولكنه أكد له وحدته • ويوم احتل الانجليز القاهرة
ظفر بجواد ضبال ولكن والده خشى العاقبة فضربه ومضى
بالجواد ليلا الى الخليج ثم أطلقه وكانت المدينة ترتجف من
الخوف والحزن • ورجع الى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد
قطعة صغيرة • بيضاء ناصعة البياض غزيرة الشعر وفى
جبينها خصلة سوداء فأنس فى نظرة عينيها الرماديتين

استعدادا للثقافهم • وزاهية طالما عطفت على القطط • وارتاح الى نظرتها ثم تابعها وهي تدور حول رجل المقعد وريت على ظهرها فتمسحت بقدمه وعند ذاك ابتسم • ومسح على ظهرها فاستجابت لراحته وخفق ظهرها صعودا وهبوطا فبشر ذلك بمودة • وابتسم مرة أخرى عن أنياب بانث أصولها الطحلبية وشملت القطعة حركة متموجة من المرح • وتزحزح قليلا الى اليسار ليوسع لها مكانا ولكن صوت ثوتو المتهدج بالجرى ارتفع وهو يقتحم الحجرة صائحا :

— قطتى ••

فقال الشيخ مسلما :

— ها هي قطتك ••

وسأله متوردا عن اسمها فقال بحدة :

— نرجس •

وقبض بشدة على قفاها ثم جرى بها خارجا والشيخ يهتف به مستعظفا :

— حاسب •• حاسب ••

وإذا به قد ذهل ! • عجب ماذا حصل ؟ • وتبين أن شيئا أصاب جبينه • وقطب مستاء فارتفعت ضحكة ثوتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرة المرتدة • وتحسس الشيخ النظارة ليطمئن عليها ثم نادى مباركة فجاءت بسرعة وحملت الطفل مبتعدة به قبل أن يعيد رمى الكرة • وقال الشيخ :

— هذا الطفل العزيز مزعج وقاس ، من اللقطة المسكينة !

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلا فى سن ثوتو فعزاها باكيا وهو يقول :

— كان الأجدر أن أموت أنا ••

وخيل اليه وهو فى المسام أن الأعين ترمق شيخوخته

بدهشة مستحضرة التناقض الصارخ بين بقائه هو وذهاب
حفيده فى الثالثة • وليلتها قال لمزاحية ممتعضا :

— طول العمر لعنة ••

ولكن ما أرقها إذ قالت له • كلنا فداك •• انت الخير
والبركة ••

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه :

— ما دمت لا تريد أن تذهب معنا الى النادي فاختر مقهى

فى مصر الجديدة ، مقاهى مدينتنا جميلة وقريبة من البيت ••

قد يكون هذا هو المعقول ولكنه يحب قهوة متانيا • انها

مجلسه المختار طيلة دهر طويل • ومضى الى محطة

الأوتوبيس ، وهو يسير اذا سار وثيدا ولكن بقامة مرتفعة

ويستعمل العصا ولكنه لا يتوكأ عليها ، وكثيرون هم الذين

يتطلعون اليه فى دهشة مقرونة باعجاب • واتخذ مجلسه

بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة :

« ما بال القهوة خالية ! » • ولم تكن القهوة خالية • ولا كان

بها من الترابيزات الخالية الا عدد محدود • ولكنها خلت من

الأصحاب والمعارف • ومن عادته أن يرنو الى الكراسى التى

حملت قديما الأعزاء الراحلين فيتخيل وجوههم وحركاتهم •

والمناقشات حول أخبار المقطم ، ومباريات النرد الحامية ،

والسياسة • قضى الله أن يشيعهم واحدا بعد آخر وأن يبيكهم

جميعا • وجاء زمن لم يجد فيه من رفيق سوى واحد هو على

باشا مهران • وهذا الكرسي كان مجلسه • يجلس عليه قصيرا

نحيلا مكوما فوق عصاه وحافة طربوشه تماس حاجبيه

الأشبيين النافرين ، ويرمقه بنظرة هشة شبه دامعة من نظارة

كحلية ثم يتساءل :

— من منا يا ترى سيسبق صاحبه ؟

ثم يفرق فى الضحك ، وكانت يداه قد استقرطنتهما رهشة

الكبر رغم أنه كان يصغره بعامين . ولما مات فى الخامسة والثمانين حزن عليه طويلا ، ومن بعده خلت الدنيا وحلت القهوة . وما هى العقبة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتين ولكنها ميدان جديد . وماتاتيا نفسها لم يبق من أصلها الا الموضع ، ولكن أين صاحبها الرومى الودود ، وأين النذل ذو المشوارب البلقانية ؟ . والكرامى المتينة البنيان والترابيزات الرخامية الناصعة والمرايا المصقولة والبوفيه العامر بالمشروبات والفراجيل أين ؟ . وفى ليلة شم النسيم من عام ١٩٣٠ أحيل الى المعاش . وسهر ليلتها فى مسرح الأزيكية هو ومجموعة من الأصدقاء حيث جلجل صوت الطرب ، أما النهار فقد قضوه فى القناطر الخيرية محتفلين بوداعه وألقى الشيخ إبراهيم زناى قصيدة . وليلتها شرب من الكرنياك حتى ثمل وهو يطرب للصوت المنشد « يا عشرة الماضى الجميل » ولما نام آخر الليل حلم بأنه يلعب فى الجنة . ودعا له إبراهيم زناى مفتش اللغة العربية بمائة عام من العمر المديد فى قصيدته . والدعوة يبدو أنها ستستجاب . ولكن القهوة خالية . والشيخ زناى نفسه رحل وهو ما يزال فى الخدمة . واقترب النادل منه ليأخذ الصينية ولكنه تراجع كالمعتذر فذكره بفنجال القهوة المنسى الذى لم يمسه . وعندما رجع الى البيت وجده راقدًا فى السكون ، وصاحبه لم يعد من النادى . ووجد عشاءه من الزبادى على خوان . وغير ملايسه فى بطنه وجهد ودون معاونة أحد . وجلس لتناول العشاء فتذكر نرجس . لو تشاركه القطعة الصغيرة عشاءه ؟ ! . ما الطف أن يوثق علاقته بها فهى ستكون أنيسه الحقيقى فى هذا البيت المشغول بنفسه . لعلها فى موضع ما بالصالة . ومال نحو الباب قليلا وهتف : « بس .. بس » . وقام فمضى الى الكارج وصاح : « نرجس ،



واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول
لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ! »

بس ٠٠ بس ٠٠ ، فجاءه النواء من وراء الباب التالي لحجرته حيث ينام توتو وخادمته ٠ وتفكر قليلا ثم اقترب من الباب ففتحه برفق فمرت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم ٠ ارتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهي تتبعه ولكن صرخة توتو : ريت غاضبة ٠ وقال الشيخ لنفسه باسم ان الصغير لم يكن استغرق في النوم ٠ وجاء توتو جريا فانقض على القطة ثم قبض على قفاهما بشدة ٠ وريت جده على رأسه قائلا برقة :
- خفف يدك يا توتو ٠٠

ولكن الآخر ضاعف ضغطه حتى خيل الى الشيخ ان نرجس ستختنق فقال برجاء :

- اذهب انت وساحملها الى فراشك ٠٠

ولكن توتو لم يسمع له فعال الشيخ نحوه وخلصها من يده وهو يقول :

- سأطعمها ثم اعيدها اليك ٠٠

اندفع توتو غاضبا ثم دفع جده في ركبته ٠ ترنج الشيخ ، ثم تراجع خطوة مضطربة ، ثم تهاوى فكاد يسقط على الأرض لولا أن تلقاه الجدار ، والقطة لم تزل فوق ساعده ٠ ولبت في هذا الوضع المائل ، لم يستطع أن يقيم نفسه ، ودار رأسه قليلا ، وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولكنه عجز ، وزحفت القطة فوق ساعده حتى استقرت على كتفه المرتفع ، ورغم دوام رأسه الخفيف أدرك مدى الخطر الذي يتهدد عظامه بالكسر ٠ وصاح بما تبقى لديه من قوة « يا مباركة » ٠ وكان توتو يصرخ وينذر توتو بهجمة جديدة ٠ ويئس الشيخ من انقاذ نفسه ٠ ازداد خورا ولم يستطع تكرير النداء ٠ وتحفز توتو للوثوب الى ملاذ القطة فاندفع بكل قوته ولكن يد خادمته لحاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجرة بعينين ذاهلتين من اثر النوم ٠ ثم جاءت مباركة أخيرا بعد

ان أيقظها الزياط فجرت نحو سيدها مستعيذة بالله •
واحتضنته من خلف وأقامته برقق وهو يتأوه حتى وقف
كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس الى الأرض وفرت
الى حجرته • وبصعوبة شديدة رجع الشيخ الى مقعده الكبير
معتمدا على ذراع مباركة • ومضت فترة وهو صامت والمرأة
لا تكف عن السؤال عن صحته • وأشار لها بيده يطمئنها ،
ثم أسند رأسه الى ظهر الكرسي ومد ساقيه متنهدا • وأغمض
عينيه ليستجم •

وفى الحال تذكر حفلة تأبين راسخة فى الروح • رجع
من المنصة بعد انلقى كلمة طيبة ثم جلس الى جانب صديقه ،
ومال الصديق نحوه وسكب فى أذنه ثناء جميلا • لكن من كان
ذلك الصديق ؟ • آه • انه واثق من انه سيتذكره ، وكما انه
مذهل انه نسيه • قال كلمة لا يمكن أن تنسى كذلك • سوف
يتذكرها حتما • ودوى التصفيق والتهتاف ، وارتفع نواء
القطط ، وبكت كل عين حتى الأطفال ترامى صراخها • ومال
الصديق نحوه مرة أخرى وقال • وتأكد من انه سيظهر
بالتكريات جميعا •

وسرعان ما استغرق فى النوم ••

كلمته في السرّ

فؤاد أبو كبير موظف قديم أوشك أن يستوفي مدة خدمته ، وهو مثل حسن للموظف ، مثال في اتزانه فهو محترم حقا ، ودعوب على العمل فهو حمار شغل ، ولم تزايله هذه الصفة يوما منذ التحق بالخدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين • وقد انطبع بالروتين حتى تغفل في روحه وسرى في سلوكه حتى السلوك غير الرسمي فهو يرجع الى بيته كل يوم حوالى الثالثة ، يتفدى وينام حتى الخامسة ، ثم يمضى الى القهوة حوالى السادسة فيدخل النارجيلة ويتكلم فى السكادر والسياسة ، ثم يلعب النرد ، وأخيرا يعود الى بيته عند الحادية عشرة فيتعشى عشاء خفيفا ويصلى ثم ينام •

وهو زوج منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، وزوجه التى تزوجها عن قرابة وحب تقاربه فى السن ، وقد أنجب منها خمس بنات وولدا واحدا تخرج منذ أعوام طبيبا ، والجميع يتمتعون بنعمة الحياة الزوجية الموفقة •

ولتوفيقه فى الوظيفة اذ حاز رضى الرؤساء وبلغ الدرجة الثالثة الادارية ، فضلا عن توفيقه فى الذرية ، كان يخاف العين ، ويتقى شرها بالدعاء والصلاة ، ولكنه كان بصفة عامة رجلا سعيدا ، وحتى ما أصابه من ضغط لم يستطع أن يفسد عليه حياته وان فرض عليه مضايقات فى العلاج وحرمانا من بعض الأطعمة الشبيهة •

وذات يوم شعر بنشاط غريب طارئ • نشاط غريب كأيام زمان • رماه • نشاط غريب انقطع العهد به من سنين ، كأيام زمان ثامنا ، فما الذى حدث ؟ ! • وابتسم الرجل وهو يهن رأسه ، ابتسم عن طاقم نصيد وهز رأسا أبيض ناصعا ،

وعاينه النشاط فى أويقات متفرقة وبخاصة عند اليقظة
الباكرة ، واذن فهى وثبة حقيقية لا وهم ، وابتسم الرجل
وأوشك أن يضحك عاليا • ولم تستطع خبرته الحكومية أن
تمده برأى فى المسألة ، وقال لنفسه إن هذا أمر غير معقول ،
وغير مصدق ، ألم ينقض العمر ؟ !

ونتيجة لذلك وجد نفسه تتابع الوظائف باهتمام لم يؤثر
عنها من قبل • نظرة جديدة غير نظرة الأبوة السابقة ، وكأنه
كان يراهن لأول مرة ، وخلال أسبوع رأى فيهن ما لم ير طيلة
عام أو أعوام ، ومجرد مرور احداهن فى مجال بصره أصبح
كافيا لقلقلة حواسه وزلزلة قلبه فراح يقول لنفسه فى ذهول :
« اللهم لطفك ورحمتك ، ماذا جرى ؟ ! » •

وخطر له وهو متربع على الكنبه قبل النوم أن يتناول
زوجته بنظرة • كانت الولية تستمع الى الراديو بغير اهتمام ،
وجسمها مدفون فى جلباب بيتى فضفاض ، ومندبل رأسها
معمود باهمال سمح لخصلات بيضاء مشعثة أن تبرز فوق
الحاجب والأذن بصورة تستحق الرثاء ، وفى عينيها استكنت
نظرة خاملة لا تنشد الا السلامة ، وشى شدقاها بالفراغ ،
الى أن الالام الروماتزمية المتقطعة قد طبعت على وجهها
علامات ثابتة كالذعر • رمقها بئس ثم رفع عينيه الى صورة
تذكارية من شهر العسل ، صورة نصفية لهما ملونة ، تمثلهما
جنباً الى جنب فى احتشام محبب لا كعمرسان هذه الايام ،
آه • • فوزية كانت جميلة حقاً ، وكم كان هو بدينا فخماً ! •
وقال لها دون تهديد وبلهجة لم تخل من احتجاج :

ـ قلت لك مائة مرة ركبى طاقم أسنان !

وضحت فى عينيها دهشة تنبئ بالحقيقة التى لا يجهلها
وهى أنه لم يطلب منها ذلك ولا مرة واحدة ، وغمغت
والدهشة لم تفارقها :

- طاقم أسنان !

وحقيقة اخرى لا يجهلها أيضا وهي أن الايام قصرت
علاقتها على الزمالة والصدقة منذ بضع سنين فكيف يمكن
لهذا الوضع أن يتغير فجأة ؟ ! . وكانت تجلس على نفس
الكنبة على بعد ذراع منه ، وفيما بين أوقات الاستماع الى
الراديو تتلو آية الكرسي بصوت خافت وبعض الصور القصار
التي تقيم بها صلواتها الخمس . ولفه احساس بالغربة ولكن
قلقه الطارئ العجيب كان أقوى من الغربة فقال :

- قلت ذلك مائة مرة ! ، ومالك تهملين نفسك الى هذه

الدرجة !

فأوقفت التلاوة لتقول له :

- أمرك عجيب ..

يا له من موقف ! . لعنة الله على المرض . وعلى
الجنون . لكنك تسب الجنون بلسانك فقط . هذا واضح .
يا لها من مهزلة . ومد ذراعه على مسند الكنبه الى ما وراء
ظهرها ، ثم ربت على قفاها ضاحكا فهزت رأسها متممة :

- أمرك عجيب ..

فهمس بعد جهد غير يسير :

- كأيام زمان !

فانكششت المرأة ، ترحزحت حتى طرف الكنبه وهي

تغمغم :

- يا عيب الشوم !

ولما رآها مقوسة على خجلها أدرك مدى سخفه . وواصل
اكتشافاته فى الوزارة والطريق والقهوة حتى احترقت عيناه .
وارتدت الأعوام الماضية بصرارتها الاستوائية . وهام على
وجهه فى مظان الهوى فى الحداثق وحفلات السينما الصباحية
وراح يقول لنفسه : « ما أعجب هذا .. وما أبهجه » . وشعر

بأنه مطارده وأنه يوشك أن يضبط متلبسا ، وأنه لا يستطيع ان
ينسى عمرا كاملا من الوقار والاستقامة وحسن السمعة .
ولكنه لم يتوقف ، بل ولم يعد يقنع بالمغامرات النظرية . وذكر
أبنائه وأحفاده ، وتوهم أى فضيحة كان يرعى أطرافه
ويتلجها . وهل يمكن أن تعالج الأمور بالصبر ؟ . وما جدوى
الصبر وهو من صلب فلاح تزوج فى الحلقة السابعة ! .
وما جدواه وهو يشم أريج الحب فى كل مكان ! . وما عسى
أن يفعل ؟ . وبعد تردد ثقيل فاتح أحد أقرانه فى القهوة
بمتاعبه ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ . ضحك الرجل وقال :
— الظاهر أنك بحكم العمر انقلبت للإيمان بالخرافات !
فقال بحدة :

— ولكن ما أخبرتك به حقيقة لا شك فيها !

فرقع الرجل يديه بالدعاء قائلا :

— اللهم بارك فى عقل قواد أبو كبير !

كلا لا فائدة ترجى من هؤلاء الفانين ! . وعاد يتساءل
عما عسى أن يفعل ؟ . ست آمنة . وثب الاسم من الظلمات
كالشهاب . ست آمنة جارتة القديمة بروض الفرج قبل أن
ينتقل بأسرته الى المسكن الحالى بالسيدة . وهى صاحبة
الشفقة التحتانية ، أرملة ، وقد حاولت كثيرا أن تصادق
زوجته ولكن فوزية لم تستخف ظلها . ولعلها فى الأربعين أو
فوق ذلك بقليل ، ولا تخلو من وسامة ، أما تأنقها المبالغ فيه
فيقطع بحبها الحياة . اوفى عهد الجوار سنحت بينهما وقائع
ولكنه حسنها باستقامته فوثقت ولم يعلم بها أحد . كانت
تحببه عند خروجه اذا تصادف وجودها فى النافذة وما أكثر
المصادفات . وأكثر من مرة وهو راجع كان يراها من خلال
الباب المفتوح وهى تخطر فى قميص بيتى ! . ورغم ارتياحه
الباطنى الذى كان يبعثه الزهو لا الرغبة فانه لم يشجعها قط

زاهدا ومشققا فى الوقت نفسه من فضيحة تهز مكانته المرموقة
فى أسرته وفى العمارة • ومرة تعرضت له أمام شقتها فحيته
ثم قالت :

– تسمع دقيقة واحدة يا فؤاد الهندى ؟

وارتبك الرجل بشكل واضح فقالت :

– لدى مشكلة أود أن أعرضها عليك !

وقع فى لخرة دلت على ذهوله ثم قال بجهد :

– تفضلى بزيارتنا وستجديننى تحت امرك •

ومن وقتها تجاهلته تجاهلا كاملا وكان ذلك قبيل انتقاله
الى السيدة الذى مضى عليه ما يقارب العام • اليوم تدور
أفكاره حول ست آمنة ، ويستعيد ذكرياتها بحرارة بلغت حد
الهوس • انصهرت تلك الأفكار والذكريات فى رأسه وهو
ماض الى روض الفرج • أجل بلغ مسكنه القديم فى الوقت
الذى كان ينتظر فيه أن يكون فى القهوة • وضغط على جرس
الباب وقلبه يفوض فى الأعماق • وكم ذهلت ست آمنة عندما
رأته أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ••

– فؤاد أفندى !

حرك رأسه بالإيجاب دون أن ينبس •

– خير إن شاء الله !

ثم تنحّت عن الباب وهى تدعوه الى الدخول • وجد نفسه
فى حجرة استقبال صغيرة معبقة بعبير ورد فى زهرية على
قائم معدنى طويل فى الركن • وغابت عنه وقتا ثم عادت آخذة
زينتها ملقطة فى روب أبيض يذكر بفستان العرس • ولم
تقتصد فى إعلان اهتمامها بالزيارة مرددة « خير إن شاء
الله » قطار من دماغه جميع ما أعده من قول ، ولكنه شعر
بأنه مطالب بتفسير حضوره فقال :

– كنت مارا من هنا فقلت يجب أن أزور ست آمنة ! •



وكم ذهلت ست آمنة عندما رآته
أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ..

ابتسعت المرأة وهي تتمتع « خطوة عزيزة » ثم وهي تضحك :

— ولكنك لم تكن تحب زيارتنا ؟ !

فاحمر وجهه وقال كالمعتذر :

— الراقع أن الظروف ..

وتوقف لا يدرى ماذا يقول . ثم ابتسم ابتسامة دلت على انه يسترد توازنه وقال :

— قلت مرة ان لديك مشكلة ..

فضحكت المرأة ضحكة عالية . وتبادلا نظرات باسممة فواتته شجاعة عظيمة فنهض ليجلس الى جانبها على كنبه واحدة . ومد يده الى يدها ولكنها سحبتها برقة وهي تقول :

— الظاهر أنك لم تفهمنى على حقيقتى يا فؤاد أفندى ..

لهجة حادة صدمت قلبه فانكمش . وعادت تقول :

— لست كما تتصور ، أنت قلت لنفسك آمنة أرملة ، وقد

دعنتى مرة الى شقتها ، لا بد أن تكون ...

وهتف بحماس يغطى به فتوره وفشله :

— معاذ الله .. معاذ الله ..

فحذجته بنظرة جريئة وسالته :

— اذن ماذا تريد ؟

آه .. لم يتوقع هذا . خاب سعيك حقا ؟

— يجب أن تعلم أننى امرأة شريفة ، وتصرف بعد ذلك كما يحلو لك !

رجع وهو يقول لنفسه ان الامر ليس بالبساطة التى حلم بها . ومع ذلك فقد شددت على يده وهي تودعه وأعربت له عن مشاعر طيبة جدا : وقالت انها تنتظر زيارة أخرى بل وثالثة ورابعة ! . واضمح جدا ما تريد . وحن بكل قواه الى عيبر الورد ثم اعترف بأنه فقد عقله . ووجد فوزية تعاني أزمة من

أزمات مرضها فتضاعف همه : وتذكر الأبناء والأحفاد فتكدر
لحد المرارة . وتؤكد لديه أنه لن يستطيع مواصلة الحياة في
هذه الدوامه .

وفي خلال شهر من الزيارة الغريبة تزوج فؤاد أبو كبير
من ست آمنة في تكتم تام .

ولم يستطع بعد ذلك أن يواجه أسرته بالحقيقة فكتب الى
ابنه الدكتور خطابا مسهبا أشبه بالاعتراف ، مؤكدا فيه أنه
لن يتخلى عن واجباته نحو أمه . وأقام في مسكن آمنة في
بيته القديم . وتوقع أن يتصل به ابنه أو احدى بناته ولكن
شيئا من هذا لم يحدث حتى خيل اليه أنه انتقل الى عالم
آخر ، وجعل يتخيل وقع المفاجأة في أسرته بذهول ، ولكنه
طرح كل شيء جانبا وسلم نفسه للحب .

وبعد مرور ستة أشهر كتب فؤاد أبو كبير خطابا آخر الى
ابنه الدكتور . أخبره فيه بأنه مريض ودعاه الى مقابلته .
وهال الدكتور أن يجد أباه طريح الفراش . هيكلا عظيما
مكسوا بجلد ذابل ، ونظرة الموت تطل من محجريه . هاله
المنظر حقا فبهت ، ولما رآه أبوه اغرورقت عيناه فانكب الشاب
على يده المعروقة التي ضرب لونها الى السواد يقبلها ويبكى .
وجلست آمنة صامئة طيلة العناق والبكاء ثم قالت :

— زاره ثلاثة أطباء !

ولكن الرجل قال :

— أريد أن أرقد هناك . . .

فقالت المرأة وهي تحول وجهها جانبا :

— علم الله أنني لم أقصر في خدمته ولكن المهم هو راحته

فإذا شاء ذهب . . .

عاد فؤاد أبو كبير الى فراشه القديم هيكلا عظيما مكسوا
بجلد ذابل ونظرة الموت تطل من محجريه . وأحاطت به أسرته

ولكنه استغرق في النوم أكثر الوقت • وفي لحظات اليقظة
كان ينقل بينهم عينيه صامتاً أو ينادى اسماً بلسان ثقيل
وصوت شخص آخر • ولم يتحسن ولكنه دخل طورا جديدا
يقسم بالغرابة • ومرة فتح عينيه وكان ابنه جالسا بجوار
الفراش وحده فتسائل باهتمام :

— ماذا حدث ؟

فساله الشاب عن حاله فتأوه قائلا :

— الظاهر أنني ضعيف جدا •• ولكني لا أدري ••

فساله بقلق :

— لا تدري ماذا ؟

— ماذا ؟ ! ، نعم ماذا ؟ ، ولكن لم ؟ ، هذه هي النقطة ••

وساد الصمت مليا ثم استدرك قائلا :

— لذلك لا أستطيع أن أقطع برأي ، شقي أم سعيد ؟ !

وأشار إليه كأنما سيفضي إليه يصر لا يريد أن يطلع عليه

أحد ففرب الشاب وجهه منه فقال :

— عرفت كل شيء ، كل شيء ، حتى الهدف الحقيقي ••

ثم بدرجة أدنى من الانخفاض :

— ورغم التصميم على عدم التمسك بأمسيات نميت ، حقائق

مذهلة ولكن ما هي ؟ !

والح ابنه عليه أن يستريح ولكنه عاد يقول :

— حقائق هائلة مذهلة ، ولكنها ضاعت جميعا •••

وأغضض عينيه أعياء ثم غمغم :

— كم أود أن أتذكر ولو قليلا كي أموت مطمئنا ! •••

الخوف

فى تلك الفترة من أوائل القرن كان أهل الفرغانة أتعس الأحياء • كانت عطفهم تقع بين حارة دعبس من ناحية وحارة الحلوجى من ناحية أخرى ، وكانت الحارتان متنافستين متعاديتين لا يهدأ بينهما نزاع ، وقد عرف سكانهما بالشراسة والغلظة والعدوان ، وتسليتهم الأولى كانت العبث بالقوانين والناس •

وعلى عهد جعران فتوة الحلوجى والأعور فتوة دعبس اشتدت بين الحارتين العداوة وسالت الدماء وتعدد نشوب المعارك فى الطرقات والجبل •

وتسائل أهل الفرغانة فى جزع وما ذنبنا ونحن لا من دعبس ولا من الحلوجى ؟ ! • ذلك أنه ما أن تنشب معركة فى أى مكان حتى يعصف بهم الذعر فيتوارى كل بما يملك أو بنفسه وراء الأبواب ، ولم يكن من النادر أن يشتبك الخصمان فوق أرض الفرغانة نفسها ، وهناك ينعق غراب الخراب فتتقلب العربات وتتحطم السلاسل وينفجر الصوت ويصاب الأبرياء بلا حساب حتى أمست الحياة فى العطفة شرا لا يطاق وفاقت خسائريهم أصحاب النزاع أنفسهم وكره الحياة منهم حتى السعداء • ويوما استغاثوا رجال الدين فيبذل هؤلاء أطيب ما عندهم من مسعى حتى اتفق العدوان على تجنب الفرغانة ويلات معاركهم • وكان يوم عظيم أرخت به الفرغانة لطمائنتها ، ولكن أية طمأنينة ؟ • لقد كلفتهم ما يطيقون وما لا يطيقون من حسن السلوك وطيب المجاملة والحرص على الحياد فى المعاملة حتى ضاعت فى ذلك أموال وابتذلت كرامات • وكلما فاض بهم الهم فأوشكوا على التمرد شكروا

الزمان الأول بمأسيه فازدردوا الألم صابرين ، ولكنهم رغم ذلك كله تعموا بفترة سلام نسبي لم يعرفوها من قبل .
حتى نزلت الى الحارة نعيمة بنت عم الليثي بياح الكبدية .
فعندما ضعف بصر العجوز حتى لم يعد يفرق بين النكلة والمليم اصطحب معه نعيمة لتعاونه في عمله . نزلت الى العطفة وهي في مطلع سن الزواج . وتصدت للمعاملة في جلباب غطاها من العنق الى الكعبين ولكنه وشى بقوام معتدل ونمت التصاقاته العفوية بأجزاء الجسد عن بضاضة ، الى امتياز الوجه باستدارة ريانة في لون الدوم الرائق ، وعينين لوزيتين في لون الشهد المصفى تعبت في نظرتهما حيوية شباب مستجيبة في سذاجة للاعجاب . ورمقتها عيون الشباب باهتمام ، وانجذبوا الى فرن الكبدية القائمة فوق عربة اليد . كما ينجذب الذباب الى السكر . وما لبث أن قرأ عم الليثي العجوز الفاتحة مع شاب بياح بطاطة يدعى الحملى . وانتظر الناس الأفراح ولكنهم عندما اجتمعوا مساء يوم بقهوة التوتة - وقد سميت كذلك لوقوعها تحت أفرع شجرة توت - قرءوا الكبر واضحا في وجه الرجل الذابل . وسأله صاحب القهوة:

— ما لك يا ليثي كفى الله الشر ؟

فأجاب العجوز متنهدا :

— المنحوس يجد العظم في الكبدية !

تطلعت اليه الرموس من فوق الجوز وأقداح القرفة والشاي فقال باقتضاب ذي معنى :

— نعيمة .. !

— ما لها ؟ .. حصل من الحملى عيب ؟

فهز الرجل رأسه المغم بلاسة منقطة وقال :

— لا دخل للحملى في همى ولكن قابلى الأعور فتوة

دعيس بلطف غريب ثم قال لى إنه يطلب القرب في نعيمة !

تجلى الاهتمام فى الامين مشويا بانزعاج ثم سأل سائق
كارو :

- وماذا قلت له ؟

- ارتبكت .. وبكل صعوبة قلت ان فاتحتها مقروءة مع
الحملى فصاح : الاعور يجيبك بنفسه تقول له الحملى ؟ !
الحقيقة انا انذعرت ..

- ثم ؟ !

فامتلات غضون وجهه بالقرف وهو يقول :

- مددت يدى وانا لا ادرى وقرات معه الفاتحة !

- وفاتحة الحملى ؟

.. قابلته ، واعترفت له بوكستى فحزن الولد الطيب ولكنه
لم يتكلم ثم ذهب ..

تبادلوا النظرات فى صمت ارتفعت فى رحابه قرارة
الجوز فقرر صاحب القهوة ان يخفف عن العجوز الألم فقال
باريحية :

- لا لوم عليك ، اى واحد منا فى مكانك يتصرف كما

تصرفت ، صل على الهادى وهون عليك !

فضرب العجوز حجره بقيضته هاتفا :

- ولكن المصيبة لم تقف عند هذا الحد !

فتساءل صاحب القهوة ذاهلا :

- وهل يوجد ما هو شر من ذلك ؟ !

- بعد فاتحة الاعور بساعتين وجدت جمران فتوة

الحلوى امامى !

- يا ساتر يا رب ، وماذا اراد ؟

- نعيمة ايضا !

وضرب صاحب القهوة كفا بكف ثم رفع رأسه الى سقف
القهوة يخاطب السماء فقال العجوز :

- اعترض سبيلي كالقضاء والقدير ، ثم ادر ماذا اقول
ولا كيف اتصرف ، ثم اضطررت أن اعترف له بفاتحة الاعور !
- يا أرض احفظي ما عليك ..
- قال لي يا مخرف .. يا أعمى .. أقول لك جمران
تقول لي الأعور ؟ ! الحقيقة أنا اندعرت ... ومددت يدي
وأنا لا أدرى وقرأت الفاتحة !
- وفاتحة الاعور ؟
فقال العجوز في انهيار تام :
- هذه هي المصيبة فأغيثوني ..
وسرعان ما أدركوا أن المصيبة إنما هي مصيبة الفراغة
وأن الخراب عاد يهدد عطفهم . ويحثوا جميعا عن حل حتى
قال مقرئ أعمى :
- لا يمكن أن تتزوج من الاثنين فهذا محال ، ولا يمكن
أن تتزوج من واحد دون الآخر فهذا هو الموت ..
ثم خلع العمامة وحك رأسه طويلا دون أن يوفق إلى
اقتراح حل فقال يباع الترمس :
- فلتتزوج سرا من الحملى ..
فقال كثيرون في وقت واحد :
- ولا أبو زيد الهلالى نفسه يمكن أن يتزوجها الآن ..
ولما أجهد التفكير رءوسهم عبثا قال المقرئ :
- ادعوا معي : يا كريم اللطاف نجنا مما نخاف ..
وانتبه الناس في الصباح على حركة غريبة في وكالة
مهجورة بالمعطفة .. رأوا جماعة من البنائين والنجارين
والعمال يعملون بهمة في الوكالة ليعودوا لحياة جديدة .
وثبتت فوق المدخل لافتة كبيرة بعنوان « نقطة الفراغة » .
وجاء عساكر وضابط فشنقوا المكان الجديد ، وتجمهر للناس
أمام النقطة فقال لهم عسكري عجوز :

- الحكمدارية غضبانة ٠٠ ولا بد أن تنتهى الفتونة !
وقال البعض أن الله قد استجاب لدعائهم ولكن الطمانينة
لم تدخل قلوبهم ٠ كل ما أحاط بهم أقنعهم بأن الفتونة أقوى
من الحكومة ٠ لم يروا طوال حياتهم شرطيا يتحدى فتوة على
حين أن الفتوات يتحدون القانون فى كل ساعة من نهار أو من
ليل ٠ ولم ينس أحد كيف أن مأمور قسم الظاهر استعان يوما
بجعمران فتوة الحلوجى على تاجر مخدرات يونانى متمتع
بالحماية الفرنسية عندما علم المأمور بأن اليونانى يهدده
بالقتل ٠ كيف يتأتى بعد ذلك لهذه النقطة البوليسية الصغيرة
أن تقضى على الفتونة ؟ !

وخرج الضابط الشاب بنجمتيه المذهبتين وشريطه الأحمر
وجلس على كرسى خيزران جنب مدخل النقطة ثم أرسل شرطيا
الى قهوة التوتة ليسانى له بنارجيلة ٠ كان فى الخامسة
والعشرين ٠ رشيق القوام غليظ القسمات ، ليس فيه ما يلفت
النظر سوى رأس كبير مفلل الشعر كأنه كتلة صوانية
مصفحة ٠ نظر الى المتجمهرين وقال ببساطة غريبة :
- محسوبيكم عثمان الجلالى ٠٠ لا تخافوا ٠٠ الحكومة

معكم ٠٠

فترددوا اليه بابتسامة بلهاء ولم ينبس أحد بكلمة فعاد
يقول وهو يتناول خرطوم النارجيلة :

- عيب أن يعيش الرجال كالنسوان ، لا تمكنوا أحدا

منكم ٠٠٠

ولما لم يجد يادرة تشجيع واحدة قال بشيء من الخفة دل
على نقاد صبره :

- ومن يتستر على مجرم سأعامله كمجرم ٠٠

ورمشت أعينهم فى ارتباك ثم تفرقوا تباعا ، كل يلوذ
بالسلامة ٠ وتجول الضابط فى الحى مستطلعا يتبعه بعض



قال لی یا مخرف ۰۰ یا اعمی ۰۰ اقول
لك جعمران تقول لی الاعور ؟ ا ۰۰۰

العساكر • طاف بدعيس كما طاف بالحلوجى • وطوقته
ابصار حيثما ذهب ، من النوافذ والمقاهى والأركان ارتطمت
به نظرات التجسس والسخرية والحنق • ومر بالأعور
فتجاهله ، ومر بجعران فتجاهله ثم أطلق ضحكة مججلة •
ولبت عثمان هادئًا طيلة الوقت ••

وأدرك الجميع أنه يستعرض هيئة الحكومة فعزم جعران
على أن يدهمه بالرد الحاسم • وعند أصيل اليوم نفسه نشب
عراك دام بين الحلوجى ودعيس فى خلاء الدراسة انتشرت
انبأؤه كاللهب فى وكالة خشب • وارتعد قلب الليثى الضعيف
وسابت مفاصل الفراغة • ونصح كثيرون الأب بأن يزوج
ابنته من جعران فهو الأقوى على أى حال ، وخراب أهون من
خراب •

وفى صباح اليوم التالى ظهر الضابط فى الحارة مرتديا
جلبأيا كماثر أهل العطفة ! • لم يصدق الناس أعينهم أول
الأمر ولكن هويته تأكدت بصوته المعروف حين ارتفع قائلاً :
- من كان يخشى البدلة فقد خلعتها والآن فليات الى
الفتوات ان كانوا حقاً رجالا !

وابتعد عن النقطة وحده بون أن يسمح لمسكرى واحد
بأن يتبعه ولكن تبعه الذاهلون من الرجال والنساء والصبية •
ومضى الى الحلوجى بثبات لم يعرف عن أحد قبله حتى وقف
أمام قهوة بندق حيث يوجد جعران بين صحبه وتابعيه • وقال
عثمان بهدوء ولكن بوجه تقطير من عبوسه النذر :
- أمس تحدثت الحكومة ، ها أنا بينكم وحدى أطلب
بنصيبى من التحدى فالجدع منكم يتقدم ؟

ورقص شاب يدعى غبة ببطنه فى وقاحة مزرية وهو
على بعد أذرع من الضابط فمال هذا نحوه بغتة ولكمه فى
بطنه لكمة شديدة سقط على أثرها بلا حراك • وذهل الجميع

لجراة لم يتوقعها أحد على حين تراجع المتفرجون عن منطقة الزلازل . واستقرت الأبصار على جعران وهو متريع على أريكة متلفعا بعباءته . ولأول مرة نظر جعران في وجه الضابط عثمان ، ثم قال :

— أنت غدرت بصاحب لى بلا سبب .
فصاح عثمان :

— استحق التأديب فأديته وسيأتى دورك فى الحال .
قال جعران بوجه مشوه بالندوب :

— أنت شباب . . . أذهب من أجل خاطر أهلك . . . !
فصاح عثمان :

— قم أن كنت رجلا وتقدم . . .

ولم يتحرك جعران استهزاء فاقترب عثمان منه خطوات وشرعان ما تكتل الأعوان حول رجلهم وأمامه فقال الضابط ساخرا :

— أرايت أنك تختبئ وراء جدار من الأنذال ؟
وهتف جعران فى رجاله :
— ابعدوا . . .

فتفرقوا بسرعة كالحمام فى أعقاب طلقة . ووثب جعران إلى الأرض وكان ربعة مدمج الجسد غليظ الرقبة ، ثم تسام :

— أين عساكركم ؟

فقال الضابط بحق :

— سأضربكم بالطريقة التى تضربون بها الناس . . .
وبمفاجأة صاعقة لطم جعران لكمة مهينة فصرخ هذا من الغضب وانقض عليه فاشتبك فى صراع مميت . تلك كانت لحظة مذهلة لم تنسها الحارة حتى اليوم . كالصراع الذى يروى عن الفيل والنمر . وكانت فاصلة فى تاريخها كله فتغير

مجرأه الى الأبد • وقرأ كل فتوة من أعوان جعران بل ومن رجال الأعور مصيره فيها •

وأراد جعران بكل وحشية في دمه أن يعصر عثمان بين ذراعيه الحديديتين ولكن الضابط اعتمد على خفة الحركة واللزمات وهو فن لم يعرفه جعران أبدا • وأصابته اللزمات فكى عدوه وصدره وبطنه وأنفه المعوج فصرخ في جنون الغضب :

— ملعون الجحيم أن لم أشرب من دمك !
وصاح الرجال الذين منعهم تقاليدهم من الاشتراك في المعركة :

— الموت •• الموت •• يا معلم •
وارتفع الصباح والصراخ والصوات • وتجمهر الحي كله تحت القبر الفاصل بين الحلوجى والفرغانة • ووقفت نعيمة ترتجف من الانفعال ، قابضة على يد أبيها بعصبية ، وهى تصف له ما يقع مما عجزت عيناه الكليلتان عن رؤيته • ودار رأس جعران بالضربات المتهاللة فبطوت حركته وتراخت ذراعاه وشخصت عيناه الى الغيب ، وهتفت نعيمة بفرح :

— وقع الوحش على ركبتيه ••
أجل قد وقع • ثم سجد حتى انخرز رأسه فى التراب فتقوس كالذب ، ثم تهاوى على جنبه •• وارتفعت عشرات النبائيت فهتف عثمان وهو من التعب فى نهاية :

— يا نسوان !
فتراجعوا خجلين وبعضهم يصيح فى وجهه :
— قريبا سيقرمون على روحك الفاتحة •• !
وجعل الضابط يتجول فى الأحياء بجلبابه البلدى وأسطورته الغربية تفرش له الرمل حيث ذهب . وكلما صادف فتوة كبيرا أو صغيرا اعترض سبيله وطالبه بأن يقول على مسمع من الناس «أنا

رة ، فان تردد انقض عليه وسوى به الأرض . وفى كل يوم
كانت له معارك يخوضها متحديا ويخرج منها منتصرا . ولم
تمض أشهر قلائل حتى رحل الفتوات عن دعبس والحلوجى
فلم يبق الا الشيوخ والنساء والصفار أو من غرض الطرف
وتبرا من الفتونة . وشعر الضعفاء بأنهم يولدون من جديد ،
ورمقوا الضابط بعين الاكبار والمحبة .

ومرض عم الليثى وفقد بصره تماما فقعده فى فراشه ،
وسرحت نعيمة بعربة الكبدة وحدها . وازدادت مع الأيام
ملاحة ونضجا الى ما كسبت من حسيت لتنافس جعران
والأعور عليها فى المامى القريب . وبين لحظة وأخرى انتظرت
المطفلة ان تزف الى عريس مناسب . وإذا بصبى القهوة
« حنسد » يهمس ذات ليلة للساهرين :

— أرايتم كيف ينظر الضابط الى نعيمة ؟

ولم يكن أحد لاحظ شيئا فعاد يقول :

— انه يأكلها بعينه ..

ومضى كل يتابع نعيمة من زاويته ، انتبهوا الى انها
تعسكر بعربتها عند الجدار المقابل للنقطة . وأن عثمان
بسترق اليها النظرات باهتمام لا يخفى على راء . وأن عينيه
ترتادان مواضع الحسن فى وجهها وجسدها . وأن نعيمة
تلون نبراتهما — عند النداء — بالدلال . وفى لفقاتها وسكناتها
عند المعاملة جرت مناورات الانوثة المتصدية لرجل يستحق
الاهتمام . وقال قائل منهم فى سهرة تالية :

— هو يأكلها وهى تود أن تؤكل ..

فتقم صاحب القهوة :

— وعم الليثى المسكين ؟ !

فقالت: يباع ألترمس :

— من يدرى ؟ ! .. ربما نطلب من المعجوز القرب !

فقال المقرئ الأعمى :

— ليس شيء على الله بكثير ٠٠

ولكن نطقت أعينهم بمدى ياسهم ٠ وقال شاب :

— هو أقرى من جعران والأعور معا ويا ويل من يقول بم !

ووقفت نعيمة فى ضوء القمر وهى تراجع حساب اليوم

وتغنى :

أنا قبله كنت هبله

ولكن تجنبها الشبان حبا فى السلامة ، وقالوا لا تغنى

بنت هكذا الا للعشق !

ولم تمض ليال حتى عاد حندس يقول :

— كل شيء وضع ، رأيتهما أمس عند خلاء شبرا !

فصاح به صاحب القهوة :

— اتق الله !

— الحمد لله ! ، كانت واقفة أمام العربية وكان الضابط

يأكل الكبد كالموحش ٠٠

فقال المقرئ :

— شيء طيبى ! كما يحدث للجميع !

فهتف حندس :

— ولكن عند خلاء شبرا ، ألا تسمع يا سيدنا ؟ ، وترحمت

على عم الليثى ٠٠

ونفذ الحزن الى الأعماق ٠ ثم قال صاحب القهوة :

— أبوها عاجز ، ولكنه شرف الحارة كلها !

فقال بياع الترمس :

— للحارة أعجز من أن تدافع عن شرقها ٠

وتجهت الوجوه بالخزى ، وعجبوا كيف يجيء ذلك من

الرجل الذى وهبهم السلام ، ولم يدوقوا للزنجبيل ولا للتبخ

طعما ٠ وتساءل شاب :

– والعمل ؟

فقال المقرئ الأعشى :

– قل « أنا مرة » !

وانتبهت نعيمة الى الصمت الذى يطوقها والازدراء ، وجعلت تتوعد الى هذا وذاك لتختبر شكوكها فارتطمت بجدار من الحنق • ولم تخش اعتداء عليها وفتوة الفتوات قائم بمجلسه أمام النقطة ولكنها عانت وحدة غريبة • ورفعت رأسها فى استكبار ولكن نظرة عينيها العسليتين خلت من الروح كورقة ذابلة • ولأقل احتكاك عابر كانت تنفجر غاضبة وتمسك بالتلابيب • وتسب وتلعن وتصيح فى وجه ضحيتها « أنا أشرف من أمك » • وتربع الضابط على الكرسي الخيزران يدخل النارجيلة ويمد ساقيه حتى منتصف الطريق وقد امتلا جسمه وانتفخ كرشه وتجلت فى عينيه نظرة متعالية ولكن خمد حماسه حتى بدا أن نعيمة نفسها لم تعد توقظ مشاعره ، والذين لم ينصوا فضله رغم كل شيء تنهدوا قائلين :

– المكتوب •• مكتوب !

ولم تعد نعيمة تمكث فى العطفة الا أقصر وقت ممكن ثم تسرح فى الأحياء ولا تعود الا مع الليل • ولأنها ممتعة دائما مكنهرة ومتوثبة للشجار دائما فقد قست ملامحها وبردت نظرتها وطبعت بطابع الجفاف فركضت الشيوخوخة نحوها بلا رحمة ••

وحتى سحرها الذى أطاح برأس الضابط قد بطل أو هذا ما بدا للأعين المستطلعة فتهايمست به أركان التوتة •• وفى لحظات الصمت ترتفع قرقرة النارجيلة فى العطفة الخابئة الضوء كسلسلة من الضحكات الساخرة •••

الرمّاد

حسن السماوى شخص يثير الحنق • ولا يشذ عن هذا
الرأى فيه أحد فى ادارة الحسابات بشركتنا • وهو قصير
القامة كصبى ولكنه غريض الصدر كمصارع ، ولونه أسمر
داكن مشوب بصفرة ، ومن عينيه الصغيرتين تطل نظرة غير
مأمونة ، وفضلا عن ذلك فهو قريب المدير العام • وطبيعى أن
نشعر بأنه عين علينا ، والأرتاح اليه لخشونة طبعه ، وأن
نضيق به لتمتعه بكافة أنواع المكافآت التشجيعية بلا جدارة ،
غير أنه يحظى بالمجاملات فى خير أحوالها • وكان مولعا
بسحر الكاتبة على الآلة الكاتبة • ظريف جدا أن ترى جلفا
وهو يحب • أن يجود وجهه المنفر بابتسامة رقيقة ، أن يرق
صوته الغليظ وهو يهمس لها بكتابة ميزان الصرف اليومى ،
وكنا نتابع ذلك باهتمام ما بعده اهتمام • ومع أننا تمنينا أن
يعذبه الحب لعله يهذهب الا أننا أشفقنا من أن يفوز حقا
بسحر ، الجميلة الرقيقة الواعدة بكل خير فى مجالى الأثوثة
والعمل • وثمة لحظات لا يكون بينهما حديث مما يمليه العمل
فيسترق إليها نظرات حمراء من فوق استمارات الصرف ،
وقد يتصبب عرقا ، أو ينال منه الاعياء فيرتد عنها بنظرة
خامدة • ويوما همس جارى فى أذنى بنيرة ذات مغزى :

— آه لو رأيت سحر وهى تنقسم خفية ؟

خطفت نظرة من سحر وهى عاكفة على الآلة الكاتبة
وأصابها الخضوبة الأظافر تعزف عليها بنشاط ، ثم قلت
متأسفا :

— نعمة لا يستحقها !

فهز رأسه غفيا وقال :

— ليس هذا ، ولكنه برهان ! •

وعجبت • برهان موظف جديد التحق بالخدمة منسداً أسبوعين فقط ، شاب ممتاز حقاً ، ولكن كيف أحرز هذا النجاح فى هذه الفترة القصيرة ؟ ! • ورحت أراقبهما فى لحظات الفراغ حتى لحت ابتسامة يقبداً لأنها • لا شك فى معناها • وتوقعت أحداثاً • وانتقل الخبر فى سرية تامة من شخص لآخر حتى استقر عند رئيسنا الكهل الذى يدنو من سن المعاش • ولم يعد الأمر تصليية فحسن السماوى ليس جلفاً فقط ، ولا قريباً للمدير فصص ، ولكنه أيضاً من أقاصى الصعيد ، من أرض عرفت بأنها ترتوى بدماء البشر ، فذهبنا فى التضمين كل مذهب •

ومرة اهتزت الادارة بصوت حسن السماوى وهو يرتفع بحدة كاسنان المنشار قائلاً :

—الحكاية أن عقلك ليس فى رأسك !

واتجهت صوبه الانظار من جميع الأركان فإذا به متحفزاً فوق مقعده يرمى بنظرة حاقدة برهان الواقف أمام مكتبه • وقال الأخير بصوت المعتذر :

— هفوة لا خطورة لها ، والاستمارة لم ترسل بعد الى المراجعة !

فصاح السماوى :

— هفوة أو جريمة هذا تقديرى أنا لا أنت ، الحقيقة أن

عقلك ليس فى رأسك !

ورمى بالاستمارة بصورة تدعو الى الاستقزاز ثم صاح بالشاب وهو راجع الى مكتبه :

— هنا شركة لا تكية !

اصفر وجه برهان من التأثير ومضى يعيد تمرير الاستمارة لكن أثر الهجمة الحاقدة انعكس على سحر بدرجة أشد فيما

خيل الى ، وضع تماما أن سرعتها المألوفة في الكتابة تعثرت ،
وأنها تمنع النظر في الكلمات ولكنها لا تقرأ شيئا • ووضع
كذلك أن السماوى رأى شيئا رابه أو حطم آماله • ولعله
ضبطه قبيل انفجاره بثوان فهو لا يكتف انفعالا ، ولكن هل
يظن أنه بالغ مراده بالقوة ؟ ! • وأخذ يطاردها في الطريق
كما قال الرواة • ورثى وهو يحدثها في محطة الأوتوبيس •
ولم ندر بطبيعة الحال كيف ينتهى عناده • وتعلقنا جميعا
يأمل واحد آمنا بأن به وحده تتحقق العدالة الالهية في
إدارتنا • وقال جارى :

— ألم تعلم ؟ ، لقد قابل عمها وهو ولى أمرها ليطلب
يدها ••

سألته بلهفة :

— والنتيجة ؟

— الاعتذار •

ثم مستدركا بفرحة غير خافية :

— فشل في البيت بعد فشل في الطريق •• ؟

وبات غرام السماوى مشكلة إدارتنا • وزاد طبعه سوءا
على سوء • عامل برهان معاملة شاذة اتسمت بالاستقزاز
والتحدى والتريس حتى آمن الشاب بأنه لا مستقبل له في
شركتنا • أما معاملته لسحر فجرت على أسلوب مضطرب
مذبذب ، فتارة يعاملها بفضاظة ويقلظ لها في القول ، وتارة
يستقبلها برقة وعطف ، ثم يعود الى الأولى ، و لا يستقر بحال
على حال • وكلما زاملت الصبر أحرقه الحقد وخنقه اليأس •
وقال مرة دون مناسبة أنكرها :

— عندنا تعامل المرأة كالحيوان ولذلك يقال عنا اننا خير

من يفهم النساء !

ولم تستك سحر فقالت بسخرية :

— هذا عنديكم !

وضحكنا جميعا حتى هو ابتسم ابتسامة صفراء ولكنه عاد يقول :

— صدقوني اننا نعاملها بما تستحق !

وعرف أن برهان يسعى الى الانتقال الى شركة أخرى وأنه من غير المستبعد أن تمضى سحر فى أثره • وذات صباح لاحظنا أن برهان لم يحضر • ومضى النهار دون أن نتلقى بلاغا باعتذاره كالمعتب • وكذلك مضى اليوم الثانى • وفى اليوم الثالث جاءتنا رسالة تنبئنا بوجوده فى المستشفى للعلاج حيث قد وقع عليه اعتداء أثيم • وزرناه جميعا • وجدناه فى جناح الجراحة مجبوس الذراع والمساك ملفوفا بالأربطة البيضاء لا يبدو منه الا عينا خابيتان • وسرعان ما أمرنا بمغادرة الحجرة فلبثنا مع شقيقه فى الاستراحة وقد تملكنا شعور بالرهبة والخطورة •

ولم يكن أدلى بأقواله بعد ولكن شقيقه أخبرنا بأن مجهولين اعتدوا عليه بالعصى وهو راجع الى بيته ليلا ثم اتوا بالفرار دون أن يتعرف على شخصياتهم أحد • والراجح أنهم كانوا من حملة الجلايب وأن الاعتداء والهرب كانا مفاجأة صاعقة وأن الظلام كان كثيفا آخر الليل ، هكذا قرر الشهود القلائل • ومع أن أفكارنا تلاقت عند ظن واحد الا أن أحدا لم يجهر به بسبب وجود حرس السماوى بيننا • وقد علق على ما سمع قائلا :

— هذه حال من الفوضى لم يسمع عنها من قبل ••

ثم سأل شقيق برهان :

— أله أعداء ؟

فنفى الرجل أنه يصرف له أعداء وأمل فى مزيد من

الوضوح عندما يستطيع برهان أن يدلى بأقواله • وعدنا جميعا واجمين وقد احمرت من البكاء عينا سحر • ولما ادلى برهان بأقواله استدعى حسن السماوى الى التحقيق • وبدا أنه استبشع التهمة بكل قوة • واستمرت التحريات طويلا ولكنها لم تسفر عن شيء • وكان على برهان أن يبقى فى المستشفى طيلة شهرين أو أكثر • وسألنى جارى معتضا :

— ما جدوى هذه الحياة ؟

وحل بادارتنا وجوم كتيب مشحون بالمسخط الصامت ، اكده باستمرار وجود سحر بيننا • وبطريقة أو بأخرى أعلنت وجوهنا وألوان سلوكنا عن باطننا • ولم نخرج فى معاملته عن حد الأدب والمجاملة ولكن تجهم أرواحنا حاصره بغضب بشرى رهيب • ونزل عن كبريائه فجعل يياسطنا فى الحديث أو يضاحكنا لأوهى مناسبة كأنما ليسبر مدى ظنونه ومخاوفه فكنا نجاريه فى تكلف وسرعان ما يسيطر الصمت • ولم يعد يتحلفا فهتف مرة دون مناسبة ظاهرة :

— أنا لا أخشى أحدا ولكنكم مخطئون !

وتسائل رئيسنا فى دهشة :

— ماذا تقصد يا سيد حسن ؟ !

فقال بعصبية :

— أنت تعلم وهم يعلمون ولكنى لا أخشى أحدا !

وتضاعف حنقنا عليه وتبنى بعضنا أن يراه جثة هامدة • وبودوره قاطعنا ولكنه كان إذا اشتبك معنا فى حديث بسبب العمل تصدانا بجده أو بسخريته • ويمرور الوقت بدأ كأنه قدر على تجاهل عواطفنا • بل وعاد الى التقرب من سحر بالابتسامة الكريهة أو الكلمة رغم أنها كانت تتصدى له فى نفور متصلب كالديك المتحفر • ونجح فى امتلاك زمام نفسه

وجرت حياته بصورة طبيعية شهدت له بقوة الأعصاب .
وأخبرنى جارى - نقلا عن سحر نفسها - أنه قال لها انه يرى
مما تظن ، وأن نقطة ضعفه الوحيدة أنه يحبها وأنه مصمم
على أن يتزوج منها ! . والظاهر أنه لم يظفر بنية استجابة إذ
صبحنا يوما بأن سألنا :
- هل قرأتم الحكاية ؟

وراح يقرأ فى الجريدة نبأ حادثة وقعت فى المنيرة إذ قتل
شاب جارته بعد أن يؤس من حبها ! . وكنا قرأنا الخبر ولكن
إعادته على أسماعنا بلهجة الصعيدية المتشفية أثارتنا الى
أبعد الحدود . أدركنا أن أفلاته من التهمة زاده على عكس
المتوقع فجورا ، وأنه من طبيعة شرسة لا تقف عند حد . ماذا
يقصد بتلاته ؟ . ومتى تدركه العدالة التى لا نتصور أن
تهمل أحدا من الطغاة ؟ . وقلت معلقا على الحادثة :

- أهلك الفتاة وأهلك نفسه !

وقال رئيسنا الكهل :

- أنى أعجب كيف يزهد انسان روحا بشريا ؟ !

فاجاب الصماوى متهمكا :

- ذلك أنك لم تعرف الحب ! . .

واسترقت الى سحر نظرة فرأيتها منكبة على العمل ولكن
بوجه مكفهر . وكأنى أدركت للصواعق والزلازل والبراكين
معنى جديدا لأول مرة . ورفع الغطاء عن وجه زميلنا برهان
معلنا عن منظر لا ينسى . تحطم عرنين الأنف ، وأخفت قطعة
من شفته السفلى عند الثنيتين . وتركت الخياطة الطبية
بوجنته اليسرى طابعا كآثر الاحتراق . وفى كلمة ضاع بها
شبابه كان لم يكن . وعاد الى عمله محطم النفس فعلا قلوبنا
بالشجن . وما عثم أن غادرنا الى عمل آخر . ولبث حسن
مصرأ على هدفه لا يثنيه عنه صد أو يأس . وكثيرا ما كانت

سحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة وهى تتسلم منه رسائل ومذكرات :

— لا تحدثنى هكذا من فضلك !

والتفتنا نحوهما بوجوه غير متسامحة فتراجع قائلاً :

— آسف ، أنت لا تفهمين قصدى !

فمضت عنه وهى تقول بتحد :

— أنا لا أخشاك .. لا أخشى شيئاً !

ولكن شيئاً لم يكن ليصرفه عن التعلق بها . وتساءلنا

بقلق هل نفاقاً بما ليس فى الحساب ؟ وناقشنا الموضوع

حول مائدة الغداء بمنزل رئيسنا الكهل . سألت :

— هل يقدم على قتل الفتاة ؟

فأجاب جازي :

— أنه لا يتورع عن شيء ..

وإذا بزميل يقول :

— أخشى أن ينتهى بها النضال الى القبول !

— القبول ؟ !

— لم لا ، انه لا يريد أن ينهزم والمرأة كما يقولون لغز !

وسألت رئيسنا عن رأيه فأجاب :

— انى أومن بالله ويتجدد ايمانى به عند كل صلاة ..

فصالته :

— وهذه الفوضى ؟

فكان جوابه أن ابتسم دون أن ينبس ثم قدم لى تفاحة !

ويدأ حسن السماوى فيما تلا ذلك من أيام هادئ ، أو

جراذيب ، أو مستسلما ، كأنما قد انتهى من نضاله الى خاتمة .

ويوما قال لنا :

— حضراتكم مدعوون لحفل خطوبتى !

ودق قلبى . ولا شك أن سؤالاً واحداً محيراً دار برعوس



٠٠ وكثيرا ما كانت سحر تضيق بملاحظاتة حتى صاحت به مرة
وهي تتسلم منه رسائل ومذكرات : لا تحدثني هكذا من فضلك!

الجميع • وجعلنا نختلس النظرات الى سحر ونعاني حزنا
كالياس من مصير الانسان • والتفت السماوى نحو سحر
ايضا ، وابتسم ، ثم هز رأسه كالمسائل ، فابتسمت بدورها
وقالت :

— بكل سرور ولكن أرجو أن تدعو برهان أيضا ليوصلنى
عند نهاية الحفل الى البيت ••

وتنهدت قلوبنا فى ارتياح عميق •••
واختلست منه نظرة بعد أن تحولت عنه الاعين فرأيت
الوجه الأسمر الداكن يقطر ياسا كالموت ••

انختام

علام يسرى - مراقب عام الوزارة - فى غاية من
السعادة • استدعاه الوزير وقال له :

- اتخذ فوراً اجراءات تعيينك وكيلاً مساعداً للوزارة •
وقام من مجلسه أمام مكتب الوزير فأنحنى امتناناً ورأسه
يدور من الذهول ثم قال :

- ما أعجزنى عن الشكر ولكن أرجو أن أكون عند حسن
الظن بى ••

فقال الوزير :

- أنت رجل كفء ، أما سمعتك الطبية فحقيقة أجمع

الناس عليها ••

ووجد علام يسرى نفسه فى غاية من السعادة فامتلاً حباً
لكل شئ ورضى عن كل شئ • وكانت له ابنة وحيدة فى
العشرين من عمرها ومن خريجات الجزويت ، وقد تقدم
لخطبتها أخيراً قاض شاب ، وبذلك وضع تماماً أن رسالته
فى الحياة تتم على أكمل وجه يحلم به انسان • وجاءه مدير
مكتبه بأوراق العرض ثم قال عندما هم بمغادرة الحجرة :

- عبد الفتاح حمام ما زال يلح فى طلب المقابلة !

فقطب المراقب العام قائلاً :

- وقتى ضيق كما ترى ، أسأله عما يريد ، وإن كان لديه

طلب فحول به الى جهة الاختصاص ••

- ولكنه يلح فى طلب المقابلة دون ذكر أسباب ، وقد طردته
أكثر من مرة من مكتبى ولكنه يعود باصرار ، ويكرر أن لديه
ما يقوله لسيادتك شخصياً ••

واضطر الى أن يحدد له وقتاً للمقابلة وهو كاره .
وجاء عبد الفتاح حمام يسير فى خطوات متهيبة وهو غاضى
البصر ، وانحنى باجلال وهو يقول :

ـ صبحك الله بالسعادة يا سيادة المراقب ..

ولفت نظر المراقب بقصر قامته وبروز صدره وبروزا غير
طبيعى ولونه الشاحب وشعر رأسه الأسود الغزير . وسأله
وهو يدارى غيظه :

ـ لماذا تصر على تضيع وقتى ؟

وتنهياً عبد الفتاح للكلام فأضاع ثوانى بارتبائه فهتفه
المراقب العام :

ـ متى تجود يا ترى بالكلام ؟

فاشتمد ارتباك الشاب كما تجلى فى احمرار وجهه وقال
بمجلة واندفاع كأنه يقذف بنفسه فى الماء فى أول تدريب
يخوضه :

ـ أنا موظف ملفات الخدمة بالمستخدمين ، وقد رجعت
الى ملف سعادتك .لنامسة اعداد البيان التمهيدى للتعيين
الجديد ، مبارك يا فندم ! ، الموقف أنسانى ما كان يجب أن
أبدأ به ..

وازدرد ريقه متوقفاً عن الكلام فتساءل المراقب العام :

ـ ألهذا تطلب مقابلتى ؟ !

ـ كلا يا فندم ، ولكنى بالرجوع الى ملف سيادتك اطلعت
على شهادة الميلاد ..

آه . شهادة الميلاد ! . وانتزعه الماضى من حاضره بجذبة
واحدة قاسية ولكنه لم يصدق . وتساءل ببرود :

ـ نعم ؟

ـ اطلعت عليها فوجدت بها شيئاً غير طبيعى ..
انن هو ذلك ! . لا يمكن أن يصدق . ولكنه حقيقى كجثة

مطمورة اكتشفت فجأة • وقاوم من خلال شعور بالاعدام
فتساءل :

— ماذا تقصد ؟

فقال عبد الفتاح بشيء من الهدوء لأول مرة :

— يوجد • تحوير • فى الشهادة !

— لا أفهم ! ، لعله تصحيح أو شيء من هذا القبيل ! ؟

— من يصدق النظر لا يشك أنه • •

وخرقت أذنه الكلمة غير المنطوقة • وشعر ببأس كالموت •

أما الآخر فقال :

— رأيت أن أرجع الى سيادتك قبل أن أكتب مذكرة عن

الموضوع لمدير المستخدمين !

على أى حال يجب ألا ينهار أمام خصمه ! • لقد قضى

عليه ولكنه يجب ان يتماسك وأن يتجلد فمن يدري ؟ ! • وإكفظ

قلبه بالكراهية ، ولكن ما الحيلة ؟ • واليوم موعد اجتماع

لجنة الميزانية ويجب أن يبدو كل شيء طبيعيا • وسأله :

— هل دقت النظر ؟

— نعم ! ، كان يمكن أن أكتفى بمراجعة صحيفة الأحوال

ولكنى اخلاصا منى لعملى أراجع الوثائق الأصلية ، ولا أندري

كيف وقع بصرى على • • •

آه انه لا يدري كيف ! • وفاض قلبه باليأس والكراهية ،

لولا الترقية المنتظرة لرقدت الشهادة فى أمان حتى نهاية

الرحلة الوشيكة . على أى حال لا يجوز أن ينهار أمام عيني

خصمه •

وسأله :

— وبعد ؟

— قلت أرجع أولا الى سيادة المراقب العام !

— انى أشكر لك تصرفك ولو أن • •

ودق جرس التليفون فاذا بوكيل الوزارة يطلبه فنهض
منزعجا خشية ان يخونه صفاء الذهن الضروري للمقابلة •
وقال من خلال عالم مقوض الأركان :

— اسمع يا بنى ، أنا الآن مشغول جدا فلنؤجل الحديث ،
وعندى لجنة ميزانية بعد الظهر فموعدنا الغد ، ان أقوالك
غريبة وغير مفهومة لى البتة فلنؤجل مناقشتها الى غد ••
وفى الطريق الى مكتب الوكيل غاب تماما عما حوله •
وتصلع الى الامام بنظرة ذاهلة منقبلا عن القوة المدمرة
الساخرة • متى يغمض له جفن ؟ • وتمنى ان يتغيب عن لجنة
الميزانية ليصفى حسابه مع معذبه ولكنه جفل من مجرد
التفكير فى ذلك • انه اعترف خطير سيعجل بالقضاء عليه •
ولكن هل انتهى حقا ؟ ! •

وغادر الوزارة عقب مقابلة الوكيل • استقل سيارته
الاولى التى يسوقها بنفسه وعند خروجه من باب الوزارة لمح
عبد الفتاح حمام واقفا أمام محل صغير لبيع الفول يتناول
سندويتش • التقت عيناهما لحظة ريثما انعطف الى الطريق •
رقد خفق قلبه فى رعب حقيقى ثم اشتعل بالكراهية • لعله
ينتظره ! لعله مجرم محترف • لقد انتهى حقا •

وفى البيت كان حديث الأفراح يتردد فى أكثر الأوقات •
عن العريس والحفل يتكلمون ، عن الحلى والملابس والجهاز
لا ينقطع الحديث • ومنى سعيدة جدا ومثلها أمها وسرعان
ما ينخرط فى همومهم الممتعة ويدلى برأيه فى كل شيء • ولكنه
حصن نفسه هذه المرة بقوله :

— الظاهر انى متوعدك اليوم ، أعفونى من الكلام ومن
الطعام •• !

بذلك حصن نفسه ضد الأعين المتفحصة ، وشرب كوبا من
البرتقال ثم آوى الى فراشه • وسعادة منى المتجلية لم تبرح

مخيلته فعذبته عذابا اليما • وقال لنفسه بأنه لن يسمح لقوة
بالقدر بهذه السعادة • واستعرض فى لحظات حياة طويلة
طابعها الجد والامانة والاستقامة •

علام يسرى مثال طيب حقا فى وسط ملمعون • وذلك
الخطأ الذى ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ينفجر على غير
انتظار كلغم منسى • وقد ارتكبه ليقبل فى المعهد وحتى لاتضيع
آماله هباء • لم يكن مغامرا ولا مستهترا بالمبادئ ولكن
اغتاله الضعف والامل • كان موقفا رهيبا عندما قدم أوراقه
فمنظرة مدققة من عين المسجل كانت كفيلة بنبذه من المجتمع •
وآمن بأن جريمته قد دفنت فى الملف الى الأبد ولكنه لم يفس
انه سيقتال الحكومة فى عامين من مدة خدمته • ولم يبرحه
ما قدم من عمل مجد واستقامة فعزم على طلب الاحالة على
المعاش عندما يحل موعده الحقيقى الذى لا يعلم به أحد سواه ،
أجل طالما نكر نفسه بذلك ولعل مرض القلب الذى انتابه منذ
أعوام كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفية المنغزة فى
ضميره ، وقد تسلسل عبد الفتاح حمام الى حجرته ليقبوض
بنيانه بلطمة واحدة وجعل يتطلع الى فضاء الغرفة منقبأ فى
ذهول عن القوة المدمرة الساخرة ! •

وذهب الى مكتبه مبكرا فى اليوم التالى ثم استدعى
الشاب الى مقابله وبمجرد أن رآه وهو يقترب من مكتبه فى
انصب كائب وثبت فى باطنه رغبة جنونية فى الانقضاض على
رقبته الضائرة بين كتفيه وخنقه • غير أنه رفق بمنظرة طبيعية
هادئة كانما لم يؤرقه ليلة كاملة وقال :

— لقد الى حديثك الغريب ، الحق أنه يهمنى أن أعرف
كل شيء •

وجلس عبد الفتاح فى خضوع وأعاد على مسمعه خلاصة
ما قاله أمس ، فمأله :

— ألا يجوز أن تكون واحدا ؟

فأجاب بهدوء معذب :

— الواقع أنني لم أصدق عيني بأداء الأمر ، دقت النظر طويلا ، ولكي أقطع الشك باليقين رجعت الى شهادة المعاملة الخاصة بالاعفاء من التجنيد فتأكد لدى أن ثمة قارعا في العمر بين الشهادتين مقداره عامان .

وساد صمت أليم غص المراقب عينيه في استسلام نهائي وهو يتأذى ينظرة خصمه على صفحة وجهه . أنه يطلبه بشمن السكوت . وعندما ينطق الصمت بما يضره سيقتردى في هوة الجريمة وهو في كامل وعيه بما يصنع هذه المرة . سيخطو الخطوة الأولى في طريق قنرة لا نهاية لها . أجل لا نهاية لها . وأسر لا قرار له . آه أما من وسيلة لدفعته ؟ !
وسأله :

— ويعد ؟

ارتبك الشاب قليلا ثم قال :

— قلت يجب أن أخبر سيادتك أولا .

— وثانيا ؟

أنه ينظر في الأرض ليخفي انفعالاته الشريرة . أنه لا يريد أن يموت ولا أن يخفى كشبح !
— ألا تريد أن تتكلم ؟

ولما لم يسمع منه جوابا سأل بصوت غريب في نبرته :
— ماذا تريد ؟

وبصوت ضعيف أجاب :

— لا شيء الا ما يرضيك ، لم أقصد الا أن أؤدي خدمة لك ، ثننت رجل نبيل ، وسأترك لمرى لتقديرك !
— تكلم أرجوك ..

— أنا آسف جدا لموقفى هذا ، ولكنها ٠٠ ولكنها فرصتى
الوحيدة ٠٠

— وهى ؟

قال يضبط نفس أكثر :

— يا سيادة المراقب أنت أدرى ٠٠

قال وهو يشعر بذل لم يشعر بمثله من قبل :

— ما ترتيك فى الأقدمية ؟

— لا أمل لى فى ترقية بالأقدمية ، على أن انتظر خمس
سنوات ٠٠

— واذن ؟

فقال بجرأة أوضح :

— هنالك أكثر من طريق ٠٠

فقال المراقب بلا وعى تقريباً :

— هذا يورطنى فى تصرفات طالما عفت عنها ٠٠

وتبادلا نظرة انكسر لها قلب الرجل • تألم بلا حدود •

انه يسخر من تعففه ومن حياته جميعا •

ولم يعد يطبق رؤيته فقام ماداً له يده • تصافحاً ثم غادر
الشاب الحجرة دون أن ينال وعداً صريحاً ولكنه بدا مطمئناً
كل الاطمئنان • وارتضى على مقعده وهو يقول لنفسه انى
مريض • ما بى هو مرض بكل معنى الكلمة • وعندما غادر
الوزارة بسيارته لمح عبد الفتاح بموقف الامس أمام محل
القول • وانعطف بالسيارة دون أن ينظر نحوه • غدا سيتبعه
كظله وسيقع هو تحت رحمته • ودفع السيارة نحو أطراف
المدينة بلا هدف وكان تكلف الى أسرته بأنه لن يعود قبل
المساء • يجب أن يخلو الى نفسه وأن يبيت فى أمره بلا تردد
ودون إبطاء • أيسقط فى الهاوية أم لا ؟ • هل يسلم نفسه



وارتمی علی مقعده وهو يقول لنفسه : انی مریض

أسيرا مدى العمر أو يرى حلا آخر ؟ • وكان ينطلق بسرعة
غير عادية ويحاور الشاب طوال الوقت • اتحسب أنك ملكت
كل شيء ؟ • انا أقول لا فمما أنت صانع ؟ • أجل نحن فى
الخلاء حقا ، كورنيش النيل ، ألا تحب هذا المنظر الخلاب ؟ •
لعلك خائف ، أرايت ، كان ينبغي أن أكون أنا الخائف لا أنت
أليس كذلك ؟ • لا •• لن يقيسك الصراخ • مت كحشرة •
وشدت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيمة • سنطرح هنا
وحيدا بلا أدنى أمل • ولكن ما أسخف هذه التخيلات ! ••
سيليقاتك عبد الفتاح غدا ليسمع رأيك الأخير • وزاد من
السرعة فى شبه خلاء تام • رأيك الأخير • بالقبول مع الأسر
أو الرفض مع الفضيحة • وفى الحالين لا يمكن أن تنسى
كرامتك • ومن غير الله يمكن أن ينتشلك من مازقك الخائف ؟ •
ودعا ربه طويلا حتى اغرورقت عيناه •



ووقع حادث أسيف فى طريق الكورنيش ١٠٠
وقال المحزونون : جرى القضاء عليه وهو يترقب سمادتين ::
ترقيته وزواج كريمته ••

سُوق الكانتو

غاص حسونة فى سوق الكانتو متأبطا لفافة كبيرة من الورق • كانت شمس الصيف الحامية تلهب الجموع الحاشدة وقد اصطفت على الجانبين عشرات من عربات اليد مثقلة بالملابس والأوعية والأواني والأدوات القديمة • قصد حسونة عربة رمضان ولكن منعه من الوصول إليها سياج من الجلابيب والملاءات اللف ، ولم يجد صياحه فى اختراق هدير صاحب منه اصوات النداءات والمساومة والسب • ورصده حتى التفت ناحيته فصرخ بأعلى صوته :

— يامعلم رمضان !

انتبه الرجل الى مصدر الصوت فلوح له حسونة بذراعه صائحا :

— معى هدية !

وشق رمضان طريقه اليه بجهد قاس حتى بلغه ثم سألہ :

— بيع أم شراء ؟

فضحك حسونة عن أنياب كالاسياخ وقال :

— ربنا لا يقطع لنا عادة ••

— ما معك ؟

— جاكته ••

وضح الاهتمام فى وجه رمضان فتناول اللفافة ثم استخرج الجاكته ليتفحصها • جاكته رمادية فى حالة جيدة كبيرة الحجم حتى لتصلح معطفا لحسونة • وسألہ بلهجة ذات معنى :

— من أين ••• ؟

فأجابه وهو يغمز بعين حمراء :

— اطمئن ..

ودس رمضان فى يده ورقة من ذات الخمسة والعشرين وهم
بالرجوع ولكن حسونة تعلق بذراعه بحرارة وهو يقول :

— عملى ليس نزهة ، ليس نزهة ..

وبعد دفع وجذب رمى له بخمسة قروش بحركة نهائية
قاطعة ثم شق طريقه مرة أخرى الى عربته .

وجال حسونة فى أطراف السوق فابتاع أربع سجائر
ورغيفا ولحمة رأس ثم مضى الى جدار المرحاض العمومى فجلس
فى ظله ، وراح يدخن سيجارة بهدوء مؤجلا الأكل الى حين .
شنكل ! تخيل وجهه القاسى ورأسه المشوه بالندوب . وارتعد
جسمه الضئيل . لو شك فى لحظة واحدة انتهيت .

وتناول طعامه ولكن وجه شنكل سد حلقه .

وفى الليل لبد عند المنور يتصنتت . وسمع صوت شنكل
وهو يسأل بفضلة :

— أين الجاكette يا ولية ؟

فأجابت المرأة :

— لم تلمسها يدى ..

— زارك أحد ؟

— أبدا ..

— خرجت ؟

— أبدا ..

— عفريت أخذها ؟

— ربنا يعلم ..

وترامت اليه دمدمة عراك فارتعد فى مكانه .

— يا مجنون .. يا وحش ..

— تمضيننى يا كلبة ؟

— يعنى أموت وأنا ساكنة ؟ .. ما قيمة جاكette ؟

— يا خرابى ، فيها ما يساوى تعب عمر يا مجرمة ..
ابتعد حسونة عن المنور وهو يغفم فى زهول و تعب
عمر ، انتقل من سطح الربع الذى يسكنه شنكل الى السطح
الملاصق له قاصدا غرفته الخشبية ، تعب العمر ؟ ! ولكن
كيف ! لقد فتش الجيوب جييا جييا فلم يعثر على شيء !
البطانة ، أجل البطانة ، ولكن كيف كان له أن يتخيل ذلك !
يجب أن يعثر على رمضان باى ثمن ، ولكن هل يرتاب شنكل
فى أمره ؟ هل يتصور أن خروفا يجرؤ على اقتحام عرين
الأسد ؟ أن عمره يعد بالدقائق إذا لم يحصل على تعب العمر
ويرحل عن البلد ..

وغادر ريعه للبحث عن رمضان ، وجد سوق الكانتو خاليا
ال من شعاع خافت ينبعث من مصباح عمومى فى أقصى طرفه
الشمالى ، ولم يعثر له على أثر فى قهوة الجوهري ، ولا فى
مجلسه بسوق الخضار ولا فى غرزة أم الغلام ، أتراه يعد
النقود فى بيته ؟ ولما لم يكن يدرى أين مسكنه فقد رجع الى
سوق الكانتو عازما على قضاء الليل فوق الطوار ليكون أول
مستقبل له فى الصباح .

وجلس القرفصاء أقرب ما يكون الى المصباح ، ضيعت
ثروة يا حسونة الكلب ، ولكن من كان يصدق أن شنكل يترك
ثروة فى باطن جاكته مسروقة ؟ ! وسمع وقع أقدام تقترب
فنظر نحو الظلام فرأى شبحا قادما ، وعندما دخل القدام مجال
الشعاع وضحت معالمه بعض الشيء فإذا به شنكل ! ملاء
الربع فانتثر وإقفا بلا وعى فعرفه الرجل ورماه بنظرة سمرت
قديمه فى موضعه : .

— حسونة !

فقال بصوت متهدج :

— نعم يا معلم ..



لقد فتش الجيوب جيباً جيباً فلم يعثر على شيء ! •

— ما لك مكوما كالزبالة !

— راسى ثقيل فقلت أنلم فى الهواء ..

وصفغه كأنما وجود عليه باحسان وسار فى طريقه • لم
يصدق عينيه • وتبعه بنظره حتى اختفى وهو لا يصدق عينيه،
كلا انه لا يشك فيه والا ما أعلن عطفه بتلك الصفعة ! •
ما نعى الخوف أليس هذا بطريقه الذى يخترقه كل ليلة الى
سوق الخضار ؟ ! • وتنهذ فى اعياء ثم تداعى على الأرض •
واستيقظ مبكرا والحياة تدب فى السوق • وما لبث أن
راى رمضان قادما يدفع عريته • هرع اليه بلا تدبير وقال
بلا تمهيد :

— معلم رمضان أين الجاكطة ؟

رمقه الرجل بازدياء وهو يتمتم « يا فتاح يا عليم » لما
كرر الآخر سؤاله بلهفة أحد سأل :

— لم تسأل عن شيء لا يخصك ؟

— الجاكطة يا رمضان ؟

— عليك عفريت اسمه جاكطة ! ، بعتها ..

— بعتها ! ، يا خبر أسود ، بعتها يا رمضان ؟ ، لمن ؟

اجاب بارتياح :

— عطية الحلوانى ..

— يا خبر أسود يا رمضان •

وضاق به فزعق :

— انطق !

سأله بعينين مجنونتين :

— ماذا وجدت فيها ؟

فصفغه اعرابا عن حسرته وهو يسأله بكراهية :

— ماذا كان فيها ؟

- تعب عمر !
 - عمر من ؟
 - شنكل !
 ارتعد الرجل فهتف :
 - شنكل ! ٠٠ تبيع لى مصيبة !
 - ولكن مصيبة بيعها اكبر ٠
 - صحيح انك نحس !
 - البطانة يا رمضان ٠٠
 فكر رمضان يائسا ثم قال متنهدا :
 - لا فائدة من النواح ، انتظر الليل حتى يرجع الحلوانى
 من حلوان ٠٠
 وقطع الكلام عندما رأى زبونا واقفا ينتظر لم يدر متى
 ولا كيف جاء ٠ وتفحص حسونة الزبون باهتمام وقلق ثم
 ابتعد ٠
 وعند المساء ذهبوا معا الى قهوة الجوهري فوجدوا عطية
 الحلوانى منهمكا فى عشرة دومينو ٠ فصافحه رمضان وقدم
 له حسونة ثم اشتركا فى اللعب ٠ وغادروا القهوة معا لاتمام
 السهرة فى حجرة الحلوانى فمشوا جنبا الى جنب فى شارع
 الموسيقى فى شبه ظلام تتخلله أنوار متباعدة خافتة ٠ وجعلا
 يحاوران الشاب بجهد متكلف وهما يفكران فى شيء واحد ،
 وبدون مناسبة قال رمضان :
 - ان شاء الله تكون الجاكطة موفقة ٠٠
 فقال الحلوانى وهو يتثائب :
 - طبعاً ، ولكنها تحتاج الى تضيق (ثم وهو يلكزه
 ضاحكا) وتغيير لون ، سلمتها أمس الى عبدون الرفاء ٠٠
 وماتت رغبتهما فى مصاحبته ولكنهما لم يجدا بداً من

الذهاب • وغادرا الحجرة قبيل الفجر وهما يترنحان فقال
حسونة متاوها :

— فاز عبدون بتعب العمر ••

فهتف به :

— سنرى ، أنت من يوم مولدك نحس ••

— أنا فى حاجة الى النقود لأهرب ••

فقبض على قفاه وهو يساله :

— وأنا ؟ ! سيظننى شريكك ••

فتخلص من يده قائلا :

— انه لا يدرى شيئا عن علاقتنا •••

وفى الصباح ذهبوا معا الى دكان عبدون الرقاء وهو
يتأهب للعمل ، وعانقه رمضان معانقة الخلان ثم جلس ثلاثتهم
على أريكة فى نهاية الدكان التى كانت أشبه بدელიز ضيق
غائس فى الجدار •

ومال رمضان على أذن عبدون رغم أنه لم يكن معهم رابع

وهمس :

— لا أحب أن أشغلك عن عملك فى ساعة الصبح ولكننا

جئنا بخصوص الجاكطة التى سلمها لك عطية الحلوانى •••

فساله عبدون بدهشة :

— ما لها ؟

— هل قمت بالمطلوب لها ؟

— لم أمسها بعد ••

تنهد رمضان وحسونة بارتياح وقال رمضان :

— تلزمتنا بعض الوقت ، دقائق لا أكثر ••

فقال الرجل بقلق :

— حذ الله ! •• انها أمانة ••

— عيب يا عبدون ، ستكون عندك بعد دقائق ••

نظر اليه بارثياب ، وزدد غيظه بين الرجلين ، وابتسم
ابتسامة خبير ، ثم نهض الى كومة من الملابس المعلقة في
الجدار فقراها بسرعة حتى استقرت يده على الجاكته الرمادية
فنزعتها وراح يتحسسها باهتمام حتى استكنت يده فوق أسفل
البطانة . وحدد رمضان بنظرة ساخرة فقال الرجل :

— أحببت أن أقوم بشغلنا بعيدا عنك . .

هز عبدون منكبيه استهانة ، ورمى الطريق بنظرة حذرة ،
ثم رجع الى الأريكة ويده تفك البطانة بخفة ، ثم استخرج
رزمة من الأوراق المالية . ند عن حسونة صوت كالمشقة ،
وعلق رمضان في مجلسه ، أما عبدون فبدأ نهما مصمما ،
وقال رمضان بلهفة :

— فلنقتسمها بسرعة قبل أن يجيء أحد . .

عند ذاك اختفى النور الهادئ الوارد من الطريق ولكنهم
لم ينتبهوا لذلك . وارتفع صوت كالخوار يقول بقسوة :
— غفارم عليكم . . .

تحولت الرموس في فزع نحو الباب . وجدوا امامهم
شنكل . شنكل بكل ما أوتى من طول وعرض وكريه منظر
يسد الباب سدا . صاح عبدون :
— أنا عبد مأمور ، ولا دخل لي في شيء !

وصاح رمضان :

— على الإطلاق ما أعرف صاحبها !

وخرس حسونة فلم ينطق . ودخل الرجل على مهل حتى
تناول الرزمة من يد عبدون المرتجفة . والتفت نحو حسونة
قائلا :

— هل ظننت أن تعينى غفلت عنك دقيقة واحدة ؟

فتح الرجل فاه ولكن شنكل لطمه بيد كالمطرقة فاندلق من

ركن الأريكة فوق الأرض وهو يتأوه وكأنه يتقايأ • وقال له
بهذهء مضيف :

— اختف أن كنت تصب الحياة ••

واستدار ليخادر المكان ولكن صفارة انطلقت • وطوق
باب الدكان في ثوان بالخيرين •

ودخل الضابط شاهرا مسدسه وهو يقول بلهجة آمرة :
— كل واحد في مكانه ••

وانقض عليهم المخبرون قبل أن يفيقوا من ذهولهم • وقال
الضابط يخاطب شنكل :

— آتبعنا أسبوعا كاملا الله يتمبك ••

وعند الظهر وقفت سيارة مرسيديس أمام القسم وغادرها
رجل ربعة يدين ذو لقد هائل • قابل ضابط المباحث قصفاه
ثم جلس وهو يقول :

— جئت بناء على اشارتك ••

فقال الضابط :

— قبض على سارق جاكنتك ، وجدت نقودك كاملة لم
تمس ، وسوف تتسلمها في الوقت المناسب ولكن ينبغي أن
تبقى لاتمام بعض الاجراءات •

رمى الوجيه على سيف الضابط بنظرة امتنان وتمتم :
— همة عظيمة حقا !

فقال الضابط بلهجة ساخرة وهو يتفحصه بنظرة ذات
معنى :

— أرجو أن تكون في موضعها !

وللق الوجيه وتأكدت ظنون طالما ساورته ، ولكنه كان
شديد الحذر ، وعليه أن يستزيد من هذا الحذر مستقبلا •
واستطرد الضابط قائلا بلهجته الساخرة :

— مبارك عليك ! المال الحلال لا يضيع ! ••

وجهاً لوجه

فى أقصى مكان بالحديقة جلسا شسبه منفردين • وطيلة الوقت تبادلآ نظرة مفعمة بالتطلع والهناء وهما يحسبان الليمونادة :

— ستكون سهرة طيبة بسينما ركس •

— والفيلم عن قصة غرامية مشهورة فهو يناسبنا جدا •
ابتسمت لتعليقه • وكان القانوس الأنيق يبعث ضروءا هادئا فأضفى عليهما غموضا فائتا • وسطعت رائحة الياسمين المحلل من ثغرات التكممية المطوقة للحديقة الصغيرة ، ولم يكن بطرفها الآخر الا زوجان مثلهما غارقان فى التهامس • ونسمة لطيفة مشحونة برطوبة أغسطس ترددت من آن لأن •

وقال حامد :

— كالحلم ، كثيرا ما قلت ذلك لنفسى •

— هو كذلك ، لكنه حلم جميل •

منذ رآها فى رأس البر فى يوليو الماضى وهو يردد ذلك • بعد اختفاء خمسة عشر عاما رآها عند اللسان ساعة القيلولة • التقت عيناها فى نظرة تذكر وعرفان • وابتسما بلا خطة • تقدم منها مادا يده فصافحته • أتذكرين مصر الجديدة ؟ • نعم •• شارع الزقازيق • منذ ذلك الوقت لم أرك •

بلى ، متزوجة وخارج القاهرة أكثر الوقت • وتقابلا فى الصباح التالى فعلم أنها مطلقة من عام وأن ابنها الوحيد قد ضم الى حضانة أبيه • وغادرا الصيف فى يومين متعاقبين وهما على تفاهم وميماد ••

- ها نحن الآن نفكر فيما كان يجب أن نفكر فيه منذ
خمس عشرة عاما !

فايتسمت منها قائلة :

- القسمة والنصيب .

- وكنت أراك كل يوم تقريبا .

- أنكر ذلك

- وكنت معجبا بك !

- ولكنك ... أعني لم تقصص باي سبيل عن ذلك

الاعجاب .

قال بنبرة المعتذر :

- كنت وقتذاك مترجما مسغيرا بالخارجية ومرشحا

لبيثة .

- والمواطف أكانت محرمة على صغار المترجمين ؟

فضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

- ليس من السهل التحدث عن خيال الشباب !

- أما أنا فقد انتظرت حتى ضقت بالصمت .

- وبلغت أنا الأربعين ولم أتزوج .

بعد تردد وهي تبتسم :

- لماذا ؟ ... مجرد سؤال لا يتضمن أي اعتراض بطبيعة

الحال .

- سرقني الوقت ، كثيرون يمضون هكذا ..

اتجهت حينها لحظات الى العاشقين في الطرف الآخر

للحديقة . ناضجة تماما وهو من حسن الحظ يفصل قاضجات

نصف العمر .

- وعندما قابلتك بعد خمسة عشر عاما من الاختفاء

، جدتك مطلقة وحزينة لحرمانك من ابنك ، فتذكرت بقوة غير

• حقوقة اننى بلغت الاربعين دون زواج وقلت لنفسى لعل هذا اللقاء قد تم ليصحح أكثر من خطأ •
وترامت نشرة أخبار الثامنة والنصف من مقهى بالسوق وراء محل بيجل فاقتحمت مجلسهما الهادئ المحبب بالياسمين • وتعامل حامد :

— هل الحرب حقا وشيكة الوقوع ؟

فقالت باستهانة :

— هكذا يقولون منذ أن تولى هتلر الحكم •

— صدقت ، المهم أن نتزوج فى أقرب وقت ممكن •

عكست عيناهما نظرتين متعاقبتين ، الأولى مشرقة والآخرى غامضة دارتها بابتسامة فقال :

— لا شك أنك فكرت فى ابنك •

— أنت تقرأنى جيدا ولكنى على الحالين لن أراه الا

خادرا •

— يمكن الاتفاق على ذلك مع زوجك •

— لن يدعن ، انها العداوة العمياء •

طالعتها بنظرة انكار فاستطردت :

— أكثر أعوام المعاشرة احترقت بنار العداوة • واستمرت

بفضل تعلقى بابنى ، حتى أدركنى اليأس ••

— سينسى الرجل العداوة مع الزمن •

— ليس هو بالرجل الذى ينسى •

— أمر مؤسف حقا •

— المهم أن تفكر طويلا قبل •••

— فكرت طويلا ثم اخترتك عن اقتناع وحب •

قالت برضى :

— الواقع انى أشعر بغربة شديدة فى بيت أختى بالرغم

من أن حالتي المالية لا يأس بها •

- انى أدركه ذلك يا عزيزتى ، لكن أسمعين ؟ ! هل حقا
ستفج الحرب ؟
ابتسمت ابتسامة دأرت بها ضيقها بقطع تيار الحديث.
الاول وقالت :

- لم تعد الأقوال تنطلى على !
- الحالة أخرج مما تظنين .
- أهى تزعجك لهذا الحد ؟
- ايطاليا رابضة فى ليبيا .
- رنت اليه بنظرة هائنة فاستطرد :
- وهى رابضة أيضا فى الحبشة ، أتدركين معنى ذلك ؟
- ولكن الانجليز ..
- الانجليز ، اما أنهم ضعفاء كما يؤكد موسوليتى واما
أنهم أقوياء كما يدعون ، وفى الحالين ستعرض لأهوال
الغزو .
- انت منزعج كما لو أن الحرب ستعلن عليك أنت ! ،
بالله خبرنى لماذا ترى أن يتم الأمر فى أقرب وقت ممكن ؟ !
- آه .. نعم ، يجب أن يتم الزواج فى أقرب فرصة
لأننى عرضة للنقل الى الخارج فى أول حركة قادمة .
- عندك فكرة عن المكان المحتمل أن تنقل اليه ؟
- فرنسا تصورى أن يمضى شهر العمل فى باريس !
- يا له من خيال ! ، ولو أن ابنى سيبقى فى كفر الشيخ .
- سوف تزيينه يوما وهو رجل كامل ، أما اذا قلمت.
الحرب .
- لن يتم النقل ، هذا كل ما هنالك ..
- لن يمكن التكهّن بشئ .
- سنبقى هنا غالبا وليس فى هذا ما يضير ..

— آه يا عزيزتى هل لذكرين معنى ضرب بلد كبلدنا بقنابل
الطيارات ؟

— لماذا يضربوننا ؟ لسنا أعداء لأحد •

— سوف يتداعى كل قائم للخراب •

— لا أصدق هذا •

— لماذا ؟

— قلبى مطمئن فى صدرى •

— ما أجمل أن مطمئن انمان فى هذه الظروف !

ضحكت فى رقة بالغة وسألته :

— هل عرفتى فى رأس البير من النظرة الأولى ؟

— طبعاً •

— إذن لم أتغير كثيراً ؟

— أنت أجمل مما كنت أن يكن ذلك ممكناً •

— لا تبالغ ، ألم تتوك من المبالغات ؟

— الحب لا يعترف بالزمن •

— أنا لم أسافر الى الخارج من قبل •

— باريس ! ، عروس الدنيا ، صدقينى •

— فرنسيتى ليست على ما أود ، ربما التحقت بمعهد

مناسب •

— أما إذا قامت الحرب ونحن فى باريس ؟

— الحرب أيضاً !!

— لتقم الآن إذا كانت تنوى ذلك •

— فى باريس يمكن أن تدخل الى بلد محايد كسويسرا •

— كل شيء يتوقف على ما يصيب وطننا هنا •

— أنا مطمئنة كما قلت لك ، ولكن لماذا تقوم الحروب ؟

— العداوات ، الألمان يستعدون لهذا اليوم منذ أكثر من

عشرين سنة •

— عشرون سنة ! ، اذن كيف يمكن ان تنسى عداوة ؟

وهو يضحك :

— الناس لا ينسون العداوات ولكن من حسن الحظ انهم

يتزوجون رغم ذلك !

غادرا الحديقة وهى تتأبط نراعه ، وشبقا سبيلهما بين
الموائد فى محل بيجل الداخلى حتى انتهيا الى شارع سليمان .
ورغم الحرارة المرتفعة جرت نعمة الليل ومضت فى السماء
مئات النجوم فوق همامات العمارات الشاهقة . واقتريا فى
طريقهما من قهوة ليموند . كان يقف عند مدخلها ماسح أذنبة
مائلا الى الجدار فى قراح ، يقبض بيده على صندوقه ويهين
بالأخرى . يشارب ثائر غليظ كلن شعيراته قذت من لسلاك
حديدية . ربعة ملء ، يرثلى فوق جلبابه منقرة مخلاة ببطاقة
خضراء تحمل اسم القهوة بلصق بيضاء . ويظهر عند رأس
عطلة جانبية ملاصقة لجدار القهوة رجلان مجلببان . نادى
أحدهما ماسح الأذنبة قائلاً :

— يا عم .. من فضلك ..

استقام الرجل فى وقفته ثم أتجه نحو الرجلين الذين وقفا
داخل العطلة بعيدا عن أنوار الشارع . وجلبج ماسح الأذنبة
موقف الرجلين عندما كان متاه وسهام يسيران بحذائه . ويقت
رفع الرجل الذى ناهاه يده بهراوة الى أقصى الذراع ثم هوى
بها بكل قوة فوق رأسه . صرخ الرجل مقاربا الى الشارع
وقد سقط الصندوق من يده . وتضجعت سهام بفراع جامد
وهى ترتعد . وفى نفس الوقت رفع الرجل الآخر يده بهراوته
وهوى بها فوق رأس الرجل الملقى فوقه على ركبتيه متأوها :

— آه .. انجدونى ..

تتابعت للضربات من الرجلين بسرعة فى قصوة وعنف
واصرار حتى تهشم الرأس وغرق فى بحيرة من دماء .

وحملت سهام في المنظر الدموي بلا ارادة ثم شهقت وتداعت
مفمى عليها فتلقاها حامد بين ذراعيه • وارتفع الصياح ،
ومرح الناس الى المكان من جميع الجهات ، وهب الجالسون
على الطوار من رواد القهوة وقفوا يتعلمون ، ثم قدم شرطى
جريا وهو يصفر •

لم يجر القاتلان • لم يحاولا الهرب قط • وظل كلاهما
قائضا على هراوته الملطخة بالدماء وغيتاهما تعكسان نظرات
وحشية متحجرة • وقال اكبرهما :

— نحن تحت أمر الشاويش ولكن حذار أن يقترب منكم

أحد •

حمل حامد سهام بين ذراعيه ومضى بها الى مشرب عصير
قريب من القهوة • اجلسها على مقعد فى اقصى الحل وراح
يزيت على خديها برفق • وسأله صاحب المحل :

— أطلب الاسعاف ؟

فأجاب وهو يبلل منديله بالماء :

— انتظر لحظة من فضلك ، زينا افاقت دون حاجة الى

مساعدة ••

وجعل يمسح بالمنديل البلى وجهها وعنقها حتى عجن
البودرة بالأحمر بالكحل ، هذا والخنجة فى الخارج تتزايد
وسباب يتبادل بلا حساب • وفتحت سهام عينيها • رفت بها
الى وجهه فى ذهول • وقلبتهما فى الوجوه بدهشة ، ثم
غمضت :

— أفا تمبلانة ••

فقال لها وهو يواصل مسيح وجهها ليزيل عنه الاصباغ

تماما :

— ساتيك بكوب عصير ••

شربت قليلا فيما يشبه التقرن وغمضت مرة أخرى :



•• وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين
عندما كان حامد وسهام يمشيان بحذاءه

- منظر فظيع لا يمكن أن ينسى ..

- سينسى كل شيء حتماً ..

- ووقع الضربات على الرأس .. آه ..

- شدى حيلك ، يجب أن نذهب ..

وإذا بصرخة تفلت منها وهى تشير الى قميصه بمصيبة
منذرة .. نظر فى مرآة فرأى رشاشا من الدم قد لوث أعلى
قميصه فتقلص وجهه ورأى مثله فوق صفحة حقيبتها البيضاء
وثنية شالها .. بل منديله للمرة الرابعة وراح يزيل آثار الدم
عن القميص والحقيبة والشال فهتفت :

- هل لوثنى أيضا ؟

- لم يعد هناك شيء ، انظرى بنفسك ..

عادت الرعدة فقال بجرح :

- لا شيء خطير البتة ، لسنا أطفالا على أى حال ..

- لا تترك نقطة واحدة ..

- طبما .. طبما .. استريحى واهدى ..

أغمضت عينها فى اعياء واستسلام ، ورجع الناس من
مكان الحادث الى مقاعدهم وهم يتبادلون التعليقات فسأل
صاحب المحل الذى لم يستطع مغادرته :

- كيف جال جاد الله ؟

- مات وشيع موتا ..

- مسكين ، لكنه رجل طيب ولا أعداء له ؟

- للقاتلان ليسا من البلد ، صميديان من ابنوب !

- ما له ولابنوب ؟ عرفته هنا منذ عشرين عاما ..

- ثار قديم ، هذا مؤكد ..

وقال رجل بلهجة تلخيصية :

- لعله جاء من بلده هاريا ، ثم عثروا عليه فأنتهى عصره

الليلة ، حكاية لم تعد تدهش أحدا ..

الهارب من الإعدام

غزا الجيش الألماني الأراضي البولندية ٠٠٠
انطلق الخبر من راديو مثبت في كوة بجدار الحجرة
الوحيدة القائمة في الخرابية ، وترامى خارج الأسوار في
أرض الخفير الواسعة ، وصاح دحروج بحدة :
- هس ٠٠ اسمع انت وهى ٠٠

سكت عن الزياط الولد وأخواته الثلاث ٠ ولما رأوا الجد
في وجه أبيهم تسللوا بين أكوام الخردة وإطارات السيارات
وقطع الغيار الى الطرف القصى من الخرابية ، وهناك واصلوا
لعيهم في أمان ٠ وتوقفت آمنة عن نشر الغسيل رافعة رأسها
فوق الحبل المعلق ما بين قضيب بناغذة الحجرة وسقف
لورى قديم وصاحت بزوجها محتجة :

- أفزعت العيال ، ملعون الراديو وأخباره !
تجاهلها دحروج في غير ما غضب وأخذ النفس الأخير
من عقب سيجارة ممسك بأنمليه ثم قال :
- أذن هي الحرب !

أدرك سلامة أن الكلام موجه اليه فرفع رأسه عن عجلة
كان يعالج أطارها وحدج الرجل بعينين تلتصعان وسط لحية
سوداء غزيرة تكتنف الوجه وتسترسل حتى الرقبة ثم قال
بأنستهانة :

- نعم ، أخيرا صدقوا ٠
وانتهز سلامة فرصة تحول رأس دحروج نحو الصوت
فاسترق الى المرأة نظرة استقرت فوق وجهها المشرب ثم
انحدرت الى جسمها المشقوق الريان الصدر ٠ ولحته المرأة
قبل أن يستردها كأنما توقعتها وسرعان ما ولته ظهرها ٠



•• فرفع رأسه عن عجلة كان يعالج أطاها
وحدج الرجل بعينين براقتين تلتمعان وسط
لحية سوداء غزيرة تكتنف الوجه •

انحنى الرجل فوق العجلة وهو يقول لنفسه ما أقطع الحرب
فى حرارة أغسطس ، ما أقطع الحرارة ! • والثقت دحروج
نحوه وهو يقول :

— طالما تتيأوا بانها ستخرب العالم ، ماذا عنا نحن ؟

أجاب السنى باسمه :

— نحن بعيدون ، قليلاكل بعضهم بعضا ••

وضخ رجلا على رجل وهو يجلس على صفيحة مقلوبة
ونظر الى بعيد نظرة حائرة ثم قال :

— سمعنا الإعاجيب عن الحرب الماضية •

فأثت آمنة ضاحكة :

— أصلك عجوز !

فضحك دحروج عن أسنان سود قللا بسخرية :

— أثت لا تهتمين إلا بيطلك ••

وقال سلاحة وكان رغم تجاوزه الشباب يصغر ضاحكة

بعشر سنوات على (الكل) :

— حقا سمعنا الإعاجيب •

— الأسيوطى من هو ؟ ، كإن قلب الحرب شبيلا !

ورجع العيال ناسين الوعيد فرجعت الضوضاء ، وجرى

محمود ابن السابعة — وهو البكرى — وهن فى ثيله فرمقه

أبوه بأعجاب وضح به :

— ولد يا محمود شه حيلك ، الحرب قامت !

وعند الأصيل جلس دحروج وسلاحة على خيشة متجاورين

خارج سور الخرابة • ترامت أمثهما الصحراء حتى سفيح

الجبل ، منطقتة للرمال تحت الظل ، وانداحت فى السماء

الصافية صفرة باهتة هى بقية أنفاس القيط المختنقة • وثمة

شعاع وان من الشمس المائلة يتسلق هامة الجبل فى عجلة ،

على أن الصحراء تزفر هواء منعشا باقتراب المساء • وراح
بحروج يعد القروش والسنى مسند الرأس الى جدار السور
سارح البصر فى الأفق • وجاءت آمنة بالشاي وجرى العيال
الى الخلاء حفاة نصف عرايا • ورشف بحروج قليلا من
الشاي الساخن وهو يقول :

— قلبى يحدثنى يا سلامة بأن الشغل سيضحك عاليا •
— ليصدق قلبك يا أبى محمود •

— ليتنى أستطيع أن اعتمد عليك •

— صديقك • : وأسير شهامتك •• ولكن لا يمكن أن أبرح

الخرابية ! •

تفكر بحروج قليلا ثم تسأل :

— هل يمر بك أحد فى المدينة الكبيرة خلف هذه اللحية ؟

— أنهم يعرفون الجين •

— وهل ينقضى عمرى فى الخرابية ؟

— هى خير من جبل المشنقة يا أبى محمود ! •

الطلق بحروج ضحكة عالية ثم قال :

— يحق لى أن أضحك كلما تفكرت حكاية هريك من بين

حارسين ؟

— خير الهرب ما وقع حيث لا ينتظر •

فقالت آمنة وهى واقفة مستقبلية الخلاء وقد انعسر شالها

عن نصف رأسها القاحم :

— وأنعم الرجل بلا دية !

فقال سلامة بنيرة غاضبة :

— كان قاتلا ابن قاتل ، وقد تقدم به العمر حتى خبت أن

يسبقنى الموت اليه ، ولم يكن يكف الأهل عن مطالبتى بالثأر !

فقهق بحروج عاليا ثم قال :

— وهريت والأوراق محمولة الى المفتى ••

شد سلامة على ذراعه بامتنان قائلاً :
 - زوجت نفسي ضائعاً فقلت ليس لى الا بحروج صديق
 صباى فاويتنى يا شهيم الرجال •
 - نحن رجال يا سلامة •
 - على أى حال فالمخزن هنا فى حاجة الى رجل وانى
 رجله •
 وقطع حديثهم ظهور جنازة فى الأفق قادمة من ناحية
 العمران • مضت تتقدم نحو الطريق المهادى لسور الخرابة
 الغربى المفضى فى نهايته الى قرافة الخفير • ووضح النمش
 مسجى بغطاء من الحرير الأبيض فتمتعت آمنة :
 - شابة صغيرة يا حسرة غليها •
 فقال سلامة :
 - المكان هنا جميل وآمن فلا عيب فيه الا أنه فى طريق
 القرافة •

فتساءل بحروج وهو يضحك :
 - ليس طريقنا جميعاً ؟ !
 • لم يطرأ على الخلاء تغير يذكر منذ أعلنت الحرب • ظل
 ملعباً للشمس من الشروق الى الغروب ، ومعبراً للمنعوش ،
 ومعسكراً للصمت • وأطلقت زمارات انذار فى تجارب غارات
 وهمية • وارتفعت أهمية الزاديو القديم الباهت الى القمة
 حتى بات فى وسع بحروج أن يحصى القنابل المتبادلة بين
 سيجفريد وماجينو • وكلما استقبلت هولاء سلامة صوتاً
 منقولاً أو حركة لاعبة أو نظرة ولو غير مقصودة اخترق
 باطنه بنار شرهة وغضب فى ذات الوقت على نفسه بلا رحمة •
 وقال بحروج فى ضجر :
 - الحال لم تتغير فأين ما سمعنا عن الحرب ؟ !
 - صبرك ، ألا تذكر ما قال عميلك اليهودى ؟

نظر دحروج نحو أكرام الحديد التي ملا بها المكان عملاً
بنصيحة عميله ثم قال :

- فلتسرع الأيام ..

- فلتسرع ، ولتلتهم خمسة عشر عاماً من الزمن !

- خمسة عشر عاماً ؟ !

- في آخرها تسقط عني العقوبة !

- يا له من عمر ! ، سوف نكون على حافة حرب ثالثة !

وراح يغنى بصوت محشرج غريب « يا بهية خبريني » ثم

هتف :

- معلم دحروج .. لن يبقى من أهلى أحد الا النساء !

وقال ان آمنة تلعب بعقله وهى لا تدري ، او وهى تدري ،

وأنه سيدخل الجحيم قبل أن يدركه الموت . ولم تكن الحرب

تهمه فى شيء ولكنه سمع بين فواصل من الأغاني أنباء اجتياح

هولنده وبلجيكا وسقوط باريس . وتتابعت أمام العين طوابير

اللاجئين ، وامتلا الفراغ بالقتل والدموع ، ثم اذا بإيطاليا

تعلن الحرب . وقال دحروج بقلق :

- ها هى تدق الأبواب !

فقال سلامة بعدم اكتراث :

- لا علينا ولا لنا .

وتتمت آمنة وهى تتابع لعب العيال العرايا حول برميل

ملىء بالماء :

- ريتا كبير .

ولاول مرة انطلقت زمارة انذار بغارة حقيقية . استيقظ

دحروج وأسرتة كما استيقظ سلامة فى مرقده باللورى .

وأعلنت آمنة من خوفها على العيال وقالت ان المخبأ بعيد

فقال دحروج :

- ابقى فى الحجرة فلن يضربوا الخلاء أو القرافة ..

• ورفع سلامة رأسه نحو البدر الذى يحدق فيهم بهدوءه
الأبدي ثم قال :

— لا أرى الا أنوارا مجنونة •

ومن نافذة اللورى مد بصره الى الحجرة المخلقة • قائمة
لصق السور على يسار المدخل بسقف مائل نحو الباب وجدار
لا لون له ، مطلية بضوء القمر طاوية جوانحها على قلوب
مفعمة بالقلق ، ككوخ مهجور فتخيل أنه جن الليل والخلاء •
والغارة تنقض فتهدم كل قائم فى المدينة وتطيح بالقانون
والقضى والقاضى والسجان وحبل المشنقة • ويتفجر باطن
الأرض وتجتاح كل شيء حتى الشهامة تختلق أنفاسها •
وينهض من بين الانقاض رجل عار وامرأة ممزقة الثياب وقد
قتل الرقباء •

وتلاحقت الغارات ليلة بعد أخرى • غارات صامتة
كالأخلاء أو تتخللها مدافع مضادة • واعتاد خروج فى أثناء
الغارة أن يذهب الى سلامة فى اللورى ليشاهد السعاع
ويتحدثا :

— ليست الغارات كما سمعنا !

— الطليان ليسوا كالآلمان •

وضحك خروج وقبض على لحية سلامة قائلا :

— أنت مغالط عزرائيل فى عمرك !

— نعم ، كان ينبغي أن أكون فى القبر منذ عام ونصف عام

على الأقل ..

— ولذلك فأتيت لا تخاف الموت ؟ !

— بل أخافه منذ أن شُيِّمت رائحته وهم يحملونه الى

المقضى !

• — تصور كيف كان يكون شكلك الآن ؟

— أحمد الله الذي لمهلني حتى أرى الأنوار الكسافة
والدافع للضادة ..

وب نشاط جديد في الخرابية ثم تطعم بحال لم يحلم بها
بحروج من قبل . ومضى يغيب عن المكان ساعات كل يوم ثم
استغرقت الأعمال الخارجية نهاره كله . وعمل سلامة في
الخرابية بكل مهمة كحارس وكفزان . وفي أوقات الفراغ
يجلس على لطار من المطاط مسند الظهر الى رفرف اللورى
الخلفى ، يمدخن سيجارة أو يمشط لحيته ، وعينه الحادتان
تدعنان في مطاوعة متزايدة لرغباته للجامعة . وقال انها
تجاهل عفيه ولكنها شديدة الاحساس بهما طوال الوقت ،
وان ظفرته الثاقبة تسيطر على حركاتها وسكناتها كأنها تلعب
بهما بخيط خفى . ونظر الى السماء يتابع حداة تجول جولة
الوداع عند الاصيل ثم نظر امامه فراها واقفة على ميعدة
لمتار منه تجاه الصنبور الذى تدفق منه الماء الى صفيحة .
وقال :

— كان يوما شديد الحرارة ..

هزت رأسها بالايجاب ، ونظرت الى عينييه المحنقتين ثم
غضت بصرها وهي تدارى ابتساما . اكتسحت الابتساما
وازع الشهامة في صدره فاجتاحه اعصار . وتنهى بصوت
مسموع فزجرت المرأة مصعود الذى جذب اخته من خفييرتها
حند الباب .. وسالته :

— أعد لك الضأ ؟

فقال بنبرة تمزجت على سيطوته :

— من المنتظر أن يسافر قرينا الى الشرقية !

ورجع بحروج مع المساء . بدا متعبا معفوا ولكن النجاح
تألق في عينييه . وضحك عاكيا وهو يقول لسلامة :

- يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون ، الحرب نعمة
كبيرة !

وأعطى آمنة لفافة لحم كبيرة قائلا :

- امرعى ، لم أذق اليوم لقمة واحدة •

ومن داخل الحجرة وهو يغير ملابسه ارتفع صوته :

- سأسافر غدا الى الشرقية ••

غاب يومين وعند أصيل اليوم الثالث انتظره سلامة فوق

الخيشة خارج السور • جلس هادئا ثقيل الجفنين ، يتخلل

لحيته بأصابه ، يحصى الحدأ المتخلفة ويبادل الخلاء فتورا

واستسلاما • وترامى اليه من الداخل صوت آمنة وهي تنهر

العيال بصوت هزه المرح فرنا الى ذيل الشمس الآخذ في الانحسار

عن قمة الجبل وقال ان الليل لن يلبث أن يجثم • ولفقه صوت

من الغرب فرأى تاكسي قادما حتى وقف عند نهاية السور ثم

غادره دحروج • اقترب الرجل وهو يضرب الأرض بقدم ثقيلة

ثابتة ورأسه مرفوع • استقبله واقفا فتصافحا ثم لكمة الرجل

فى صدره وهو يضطك قائلا :

- سلامة يا بن زينب ، الانجليز رجال !

رمقه مستطلعا فاستطرد الآخر فى مياهة :

- وأصلهم من الصعيد •• !

غدا له بالمزيد من التوقيق • ودخل الرجل الخرابة

صائحا بفرح كالأطفال :

- ولد يا محمود ••

وراح يغنى « سلم على » وهو يفرقع بأصابه راقصا •

وعوت الزمارة قبيل الفجر فمضى دحروج وسلامة الى

الخلاء خارج السور كما تعودا أن يفعلا أخيرا •

وقال دحروج :

- لم تعد الزمارة تضيف لحدا •

انسابت الصحراء تحت ضوء القمر مرتعا للأحلام .
وضحك دحروج طويلا حتى ساله سلامة عما يضحكه فاجاب
وهو يرمي بكوعه الى الصخرة :
- شهدت هذه الليلة عمك دحروج كما كانت تشهده ليالى
الشباب !

وحل صمت قصير مسقوفا بانوار الكشافات ثم عاد
دحروج يقول بلهجة جادة وأخوية معا :

- سلامة . ليس اليوم كالأمس ، سيجيء كثيرون من
العملاء الجدد ، أخشى عليك !

ساله سلامة واجما :

- هل ينبغي أن أذهب ؟

- نعم ، ساهريك الى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابي ،
ما رأيك ؟

- الرأى رأيك ..

قال بثقة :

- كل شيء مرسوم يا بن زينب !

وفجأة ارتجت الأرض بزلزال ودوى انفجار شل خفقان

القلب . شد دحروج على ساعد سلامة بعصبية :

- ما هذا ؟

اجاب سلامة ووجهه يشحب فى ضوء القمر :

- قنبلة ! .. أسرع الى الحجرة ..

وارتفعت صرخة آمنة فصاح بها دحروج :

- مكانك .. مكانك يا آمنة ..

وإذا بالضرب يتسابع بلا توقف - جرى الرجلان نحو

الخرابة . وفى اللحظة التالية نبت صرخة عن دحروج ثم

سقط على وجهه - هتف سلامة :

- معلم ؟

- وانحنى فوقه ليمساعده على القيام ولكنه لم يستطع شيئا
- وانطرح فوقه بلا ارادة • وانفرزت جبهته فى الرمال
- وهبطت الأرض • وارتفع جناح الصحراء صوب السماء
- وشيء كثيف حجب وجه القمر •
- ماذا بك يا محروج ؟
- ونادى صوت ثم ابتلع الظلام كل صوت وكل لون •
- وأراد سلامة أن يقول لصاحبه : سامحنى لقد غلبنى
- النوم ••
- ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة •

سائق الفطار

كل شيء يجرى الى الوراء • الصفصاف وأعمدة البرق
تجرى بسرعة فائقة أما الأسلاك فتسبح بلا توقف هابطة
صاعدة • وعلى مدى البصر تغمر الشمس غير المرئية الحقول
والجداول وقطعان البقر والجاموس وأبناء الأرض • ودَّ أن
يستسلم لتيار المناظر ولكن حناجر الجيران المزعجة أبت عليه
ذلك • ما بالهم محتدين • لماذا يغطى صخبهم على صوت
الديزل • وحول عينيه الى الداخل فرأى الى يمينه رجلا
هدينا ذكرته هيتشه يدب ، وعلى المقعد المزدوج أمامه جلس
رجل له وجه صقر وامرأة حسناء تابعت حديثهما الصاخب
بضيق وحرص واضحين • وقال الصقر مخاطبا الدب بحدة
وانفعال :

— لا تحاول عيثا • • ١

واشدت بريق عينيه الجاحظتين وتجمع في ركبي فيه زيد
أبيض وسرت تقلصات عصبية في شاربيه المقوس كهلal مقلوب.
وبدت الحسناء وادعة كحماسة ولكنها في خلال المناقشة
الحامية هجرت فوق الرف ، ثم تطوعت لتلطيف الجو فخاطبت
الصقر قائلة بصوت ناعم :

— أعطه فرصة • • اسمع رأيه • •

فصاح بها :

— لا تتدخلى • • أنا هو أنا • •

تراجعت بجمالها ونعمتها ويأسها • وفي اثناء ذلك
التقت عيناها بعيني الغريب الجالس الى جوار النافذة وكأنها
أفكها أن تعامل أمامه كطفلة • ويقدر ما أسف الغريب لحالها



فصاح بها : لا تتدخلی ... انا هو انا

بقدر ما بهره جمال عينيها وهما ينفذان في عينيهِ • وقال
اللب في هدوء نصبي ولكن بصوت ذي رنين منفر :
- على أي حال فالناموس للناس •
- هراء ! لنا أتعامل مع جميع أنواع الحيوان أما ذلك
الانسان ••

ولوى بوزه بازديراء لا حد له فسأله الآخر :
- هل علمت بما جرى له في الفترة الأخيرة ؟
- أنا أعرف أقصر طريق بين تقطعتين !
- سنجد في النهاية أن يدك اليمنى تضرب اليسرى •
فلوح بيده غاضبا وهو يقول :
- إننا لا نتردد عن يتر اليد أو الساق عند الضرورة !
آه •• لا سبيل إلى الاستمتاع بالمنظر الخلابة في
الخارج • ومهما تتجاهل المعركة السفيفة التي انحصرت في
مجالها فسوف تلاحقه كضربات المطرقة • لن تنسى الزبد
المقرف وحتى رنوة العين الصافية لن تدعك في سلام ! •
والحال تؤكد أن احتدام المعركة لن ينقطع كدوى عجلات
الديزل المتواصل في روتين مسقم ، وليس ثمة مقعد خال في
العربة يمكن الهروب إليه •
وطرح رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيهِ • وكان الله
استجاب لدعاء خفي فإخذت المناقشة تستهلك نفسها بنفسها
فخفت الأصوات ثم حل صمت عجيب مريح ، وقد خلا كل إلى
تياره • يدع كحلم • واللعة على الرجل البعيد وعلى كل
خصام • وفتح عينيهِ ربيع فتحة مستغرقة نظرة من الوجه الرائق
فرآه منبسطا قد زائله الحزج والخجل وشعور الذلة • وعلى
حين راح الذب يشخر انهمك الصقر في مطالعة جريدة ،
وتجلت في عيني الحسناء نظرة هائلة كأول اشراقة للمصباح •
متعادية في الحلم لا تنظر إلى شيء بالذات • وفتح عينيهِ

نصف فتحة فالتقت عينها اليه مستجيبة فيما بدا لاحساس
خفى . وقال لها - فى باطنه - كم أحب منظرك ، فحولت عنه
عينها فى شبه رضى حتى عجب لقوته السحرية : وانتبه الى
ما حوله أقصى انتباه ، ولما اطمأن الى غفلة الصقر ونوم الدب
ملا عينيه منها بنهم ، قرأى فيما رأى خاتم الزواج فى يسراها
المستكنة على يمينها فوق بطنها . وما لبث الصقر أن نحى
الجريدة جانبا ومال برأسه الى الوراء ثم استغرق فى النوم .
وتولاه شعور بالأمان عجيب كان الدنيا قد حلت بعد نوم
الرجلين خلوا تاما . وانبعثت من أعماقه جسارة واستهانة
فواصل حديثه الباطنى بيمينه الى أبعد مدى . وقامت المرأة
وهى تبسم ابتسامة لا ترى عادة إلا بالقلب ومضت نحو
مدخل العربة . وباندفاع لا روية فيه قام ثم تبعها على الأثر .
ولم يكن بالمدخل أحد سواها ، ولم تدخل دورة المياه كما توقع
ولكنها وقفت وراء الباب المحكم الاغلاق رائية الى الحقول ،
ولما سمعت وقع قدميه التفتت نحوه عفوا فانتهز الفرصة
وحياها بهزة قصيرة من رأسه . أعادت رأسها الى موضعه
الأول دون رد ودون اعتراض كذلك فقال متشجعا :

والجلسة المزعجة !
وافقت على رايه بمزيد من الصمت الراضى فضحك
ضحكة قصيرة خافتة وهو يهمس :
- الوقوف هنا أجمل .
عند ذلك تمتعت :
- أظننا أزعجناك أكثر مما يحتمل .
ولشعوره بقصر الفرصة المتاحة سألها :
- حضرتك من القاهرة ؟
هزت رأسها بالنفى : وبعد وقلة قصيرة قالت :

- من طنطا ، وحضرتك ؟
- هذه السؤال الايجابى حتى الاعماق فقال دون تردد :
- انا من القاهرة ، ايمكن أن أعرف عنوانك ؟
- لا فائدة ، نحن نقيم فى العزبة ..
- ربما سافرت الى القاهرة فخذى رقم التليفون ..
- لا فائدة ..
- ويعد أن القى نظرة على الباب المغلق قال بحرارة :
- أن ما بى هو الجنون بعينه ، لا يمكن أن نسلم بالفراق دون مقاومة ، أنت تفهمين ذلك ؟
- نعم ..
- ارتفعت حرارة حماسه الى القمة وهو يقول :
- يخيل الى أنك غير سعيدة ..
- نعم ، جميع ما حولى مرعب مفرز ، أود أن أطير بعيدا ..
- أنن طيرى .
- حذجته بنظرة متسائلة تروم أملا فقال :
- تغادر الديزل فى دمنهور .
- أهرب !
- نعم ، لا وقت للتردد ..
- ويعد ذلك ؟
- دعى الباقي لى .
- ربما استيقظ قبل ذلك ، هو أو الآخر ..
- سوف يظنك بدوزة المياه ..
- ولكن ..
- لا لكن ، سنحاول ، هى فرصتنا على أى حال .
- لكن لا أحد منا يعرف الآخر !
- ما عرفناه حتى الآن أهم بكثير مما لم نعرفه بعد !

وفتح الباب قيراطا لينظر الى داخل العرببة ولما وجد كل
 شيء هادئا أغلقه ثم نظر فى الساعة وقال :
 - لدينا دقائق قبل دمنهور ، سأتى بحقيبتى الصغيرة .
 ورجع يمينين ملتصعين ووجه شديد الاصرار فقال بقلق :
 - القطار لم يهدئ من سرعته !
 فنظر فى الساعة مرة أخرى وقال :
 - لعلى أخطأت فى التقدير .
 العكس حصل اذ زادت سرعة الديزل زيادة محسوسة
 غير متوقعة وما ليئت المرأة أن هتفت :
 - انظر !
 مشيرة الى محطة دمنهور وهى تجرى بسرعة فائقة الى
 الورا ككل شيء فى الخارج :
 - كيف لم يقف فى محطة دمنهور ؟
 واذا بباب العرببة يفتح ، ورجل ينفذ منه نحو باب العرببة
 التالية وهو يصيح بأعلى صوته :
 - السائق جن ٠٠١ وسيهلكنا جميعا !
 استدارت المرأة فى ذهول وتبادلت مع الرجل نظرة
 حائرة ، وترك الرجل حقيبتة ثم فتح باب العرببة ناظرا الى
 الداخل فرأى جميع الركاب واقفين فى حال من الاضطراب
 والذعر لا توصف . وقد فتحت النوافذ جميعا واختلطت
 الأصوات وارتفعت فى هلوسة ، ورأى الصقير وهو يصرخ
 غاضبا وهى ذات الوقت ينظر حواليه باحثا - فيما اعتقد -
 من المرأة ، فأراد أن يحذرها ولكنه سرعان ما نسى ذلك وأندفع
 نحو الداخل سائلا عما هنالك فلم يسمع صوته فحسق سبيله
 بعسر شديد نحو العرببة التالية صائحا :
 - أين المفتش ؟ أين رجال القطار ١٩٠٠ ؟

ومد يده ليفتح الباب فأنفتح قبل أن يلمسه وهزول إلى
الداخل رجل صائحاً :

— السائق اعتدى على مساعده وقذف به خارج حجرته !

فسأله بأعلى صوتة :

— قبضوا عليه ؟

— أغلق بابهم ودفع القاطرة إلى آخر سرعة ..

وارتطم الصياح بالصنوات .. ورغم الضجة المدوية سمع
صوتاً يقول :

— ستنفجر القاطرة أو يقع اصطدام قاتل ..

— والعمل ؟

— سيهلك الجميع ..

اندفع من الباب مخترباً البوفيه إلى المدخل المتصل
بحجرة السائق المغلقة فرأى المفتش ورجال القطار ونفرا من
الركاب ، وسمع أجدهم يسأل :

— ما العمل ؟

فلجاب المفتش :

— نحن نفكر في كل شيء ..

— وهل ثمة أمل ؟

تجاهل المفتش السؤال ثم رفع يده داعياً الجميع إلى
المسكوت فاطبق الصمت ، ثم راح يطرق الباب المغلق بيده
هاتفاً :

— عبد الغفار أصبح إلى ..

فجاء من الداخل صوت كالرعد :

— لا تحاول ... عيثاً ..

فصاح المفتش :

— يجب أن تسمع إننا .. لا شأن للناس بمشاكله
الخاصة ..

— أنا هو أنا !

— عبد الغفار ٠٠ ما ذنب الناس ؟ ، معك رجال ونساء

وأطفال ٠٠ كلهم أبرياء !

— هراء !

— أرجع الى عقلك قبل قوات الفرصة •

— هراء !

— تذكر ربك ، ألا تخشى لقاءه ؟

— هراء !

ارتفعت درجات الذعر الى غير حد ، وتفشى الاضطراب

فى كل موضع • وبذلت محاولات يائسة لدفع الباب أو تحطيمه

ولكنها سرعان ما توقفت عندما هدد السائق بتفجير القاطرة •

وأغمى على كثرة من النساء وبعض الرجال • وفقد شاب

أعصابه فرمى بنفسه من إحدى النوافذ مودعا الحياة بمواء

ظل صدهاء يتردد طويلا • ونشبت معارك غريبة لم يعنى أحد

بفضها أو معرفة بواعثها •

واقترب الرجل من كبير المفتشين وزعق به :

— أليس هنالك من حيلة ؟

فأجاب الرجل بصوت لا يقل عنه درجة واحدة :

— جربنا كل حيلة !

— أيعنى هذا أن نفنى جميعا لا لسبب الا ٠٠٠

وشعر بذراعين تطوقانه من خلف قبل أن يتم جملته

فالتفت فى ذعر واضح فرأى المرأة تطالعه بوجه مخطوف

وبصر زائغ فصاح بها بغيظ لم يحاول أخفائه :

— تشددى ٠٠ لا وقت لهذا ٠٠

فقال بصوت مخنوق :

— أين أنت ! ، جن زوجى فخلق أخى ثم راح يضرب رأسه

فى الجدار ٠٠

قال بضيق وكأنه لم يسمع شيئاً :
 - نحن نجرى بسرعة جنونية نحو الغناء •
 ارتمت بين يديه مغمى عليها فقطب فى حنق ، ثم مضى
 يجريها الى ركن المكان فأنامها على الأرض بسرعة آلية
 بأردة ، ولما عاد الى المفتش وجده يصرخ ويشهد شاريه
 ويكي ! • ودق الرجل الباب بقبضتين مجنونتين هاتفا :
 - يا عبد الغفار •• يا عبد الغفار ••
 فجاءته الاجابة كلوية :
 - أنا لا أعرفك ••
 - ولكنك ستقتلنى ••
 - هذا شأنى ولا علاقة له بك !
 - أنا لم أسئ اليك ، لا أنا ولا الآخرون •
 - لكنكم ركبتم قطارى •
 - قل قولاً معقولاً ••
 - أنتم المجانين !
 - اليس لك أبناء ؟
 - كلا •
 - ألا تحب الحياة ؟
 - كلا •
 - اليس فى قلبك رحمة ؟
 - كلا •
 - خبرنى ما نذبتنا ؟
 - أنتم تحبون الديزل ؟
 - اطلب ما تشاء •
 - ها أنا آخذ ما أريد بغير طلب •
 ويصق المفتش على الباب صارخاً :
 - يا عبد الغفار يا مجرم يا وضيع يا غادر يا وحش !

وقرر الرجل أن يمضى الى نافذة ليرمى بنفسه منها وليكن ما يكون • وهو يتحول عن موقفه وقعت عيناه على المرأة المستلقية فى غيبوبة فقال ما أسعدها فى غيبوبتها • ووجد الركاب متكئين يسدون النافذ • توحدا فى ذهول ورعب وارتجاف • عبثا حاول أن ينفذ من بينهم • ولما يش رمى بنفسه عليهم وسرعان ما تلقته الأيدي بالضرب فانهال عليهم بدوره ضربا حتى لفهم الجنون جميعا • وإذا بالواقعة تقع • وقعت الصدمة المتوقعة كأنها ارتطام كوني • اندفع الناس بقوة جهنمية فحطمت الرموس ، وطحنت الجدران الأجساد • صرخ الرجل بأعلى حنجرته ورأى النجوم تتهاوى من حوله وصرخته تدور فى فراغ أحمر •

فتح عينيه ودوى صرخته يجعجع فى أذنه !
آه •• أنه لا يصدق • اعتدل فى جلسته وهو يظن صرخته قد مزقت الأذان • ولبت هنيهة لا يجرؤ على النظر الى أحد • ثم أخذ يسترق النظر فى حذر شديد فلم ير أحدا شاعرا له بوجود • تنهد من الأعماق • وما لبث أن تنبه الى استمرار النقاش الحاد بين الصقر والدب •
ورأى المرأة نصف مغمضة العينين غارقة فى الضجر •
اللعة •• اللعة • وكان الصقر يتحدى صاحبه قائلا :
- دعه من ضرب الأمثال العقيمة ، لا تضيع وقتى سدى •
انت تعلم أن أنا هو أنا •• !

لونا بارک

تحرك ببطء فى طابور طويل طاويا تذكرة الدخول فى يده • تذكرة أهداها اليه أبوه وكانت فى الأصل ضمن الهدايا التى توزع باسم مدير لونا بارك • تحرك فى عالم غريب مكتظ بالبشر فتلفت فى وقت واحد فيضا لا نهاية له من الأصوات والأصواء والروائح العطرية والعرق وضغط الأجساد • ومضى يتزحزح خطوة فخطوة فى المدخل الممتد على هيئة بوق حتى خرج من فوهته وقد زهقت منه الأنفاس • وجد نفسه فى ساحة يطوف بها نسيم رقيق وتطوق بجناحيها أشجار متوسطة مفروسة فى أصص كبيرة فاتجه نحو طريق ضيقة تقوم على جانبيها دكاكين الاطعمة فافضت به الى الملعب الكبير • فى الفرج الذى جاء بعد الضيق شعر بأنه ولد من جديد ، وهكذا بدأ رحلته • وصمم على تجربة كل لعبة فانه لم يتكبد مشقة المجيء ليبقى متفرجا • وصادفه مربع الأراجيح ، وكان أكثر رواده من الأطفال ولكنه لم يخل من مغامر شاب ، وإذا به يتخذ موقفه فى القارب الحديدى قابضا بيديه على العمودين ، ويدفعه بحركة ذاتية فيصعد به ويهبط محببا لكرات جميلة • وغادرها وهو راض عن نفسه تماما فابتاع بسكويتة دندرة ومضى فى رحلته • وللحال جذب انتباهه فرقة وهتاف ، وصوت الداعى « جرب قوة عضلاتك » • رأى مدفع القوة يندفع فوق القضيبين الصاعدين نحو الهدف وقد ازدهم وراء الحاجز المقرجون والمنتظرون لدورهم •

توثبت عضلاته للنضال • وسرعان ما اتخذ مكانه بين المنتظرين وهو يبتسم فى ثقة • ولما جاء دوره تقدم من قاعدة المدفع وتناول مقبضه الصلب ، وراح يدفعه دفعات قصيرة

ليختبر ثقله وسرعته فينطلق الى مدى قريب صاعدا ثم يتقهقر هابطا فيتلقاه من مقبضه مرة أخرى ، ثم شدد على عضلاته ودفعه بأقصى قوته فاندفع طاروايا القضييين بسرعة حتى ارتطم بالهدف الفولاذى وفرقت الكبسولة فى مقدمته • تحول عن موقفه والهتاف يدوى ، ولكنه ذاب فى زحمة أكبر كما ذاب الهتاف فى ضوضاء خلقت فوق المكان كله • وشق سبيلا مبهور العينين بأضواء المصابيح الملونة المتدلية من غصون الشجر حتى استقر أمام كشك لبيع البيرة المثلجة • ومال برأسه الى الوراء وهو يرفع القدح فرأى القمر فى الأفق منخفضا عن البالونات المنطلقة من صارى الملعب ، ولا تميز لنوره فى وهج الأضواء الساطعة ولا عبرة لجلاله فى الضوضاء المكتسحة الصاخبة • شرب حتى ارتوى • واستمع قليلا الى أغنية تنهال من مكبر صوت وهو ينظر من بعيد الى مضمار السيارات المكهربة •

ومضى الى المضمار بنشاط متجدد • استقل سيارة فبدأ الرحلة المكهربة • اندفعت السيارة بقوتها الذاتية ولم يكن عليه الا أن يوجهها بعجلة القيادة متفاديا اذا شاء السيارات التى تجول حوله كالكواكب • ووقعت ارتطامات عن قصد أو عن عجز فاستمتع بالهجوم والهروب على السواء ، حتى رأى سيارة تحمل فتاة قد تكالبت عليها السيارات ناطحة والفتاة لا تنى تضحك • عند ذاك دب فيه حماس جديد فاستجد لجولته معنى ، وطارد سيارة الفتاة والشرر يتطاير من عجلات سيارته • وبدأ عسيرا أن يستخلصها لنفسه من المتنافسين ولكنه احتك بها مرة ، والتحم بها أخرى فى عناد فدارا معا حول أنفسهما حتى ألقت به سيارة متحدية بعيدا • وكان عليه أن يدور دورة كبيرة قبل أن يتمكن من استرداد ما فقدته غير أن الجرس رن معلنا انتهاء الدورة • ورأى الفتاة تغادر

سيارتها فغادر سيارته • تبعها محاذرا حتى يبعد عن مجال
الاعين التى توقع تجسسها عليه ، ثم أخذ يقترب منها •
سمعت وقع أقدامه فنظرت وراءها لحظة فدخلته طمانينة الى
النجاح • وأبطأت عند سيجاج مطرز بالياسمين والبنفسج
يحيط بمطعم كباب مترام فى الهواء الطلق ففغمتها رائحة
الشواء الدسمة ممزجة بعبير الأزهار • همس :

— أنت سائقة ماهرة ! •

فابتسمت فقال لنفسه انها جاءت لذلك • وقدم لها ذراعه
فترددت قليلا ثم تأبطتها • ودعاها الى قديمين من البيرة •
اسمى حسن واسمى سعاد • ودمعت الاعين والشراب البارد
ينساب الى الأعماق • وسكب مكبر الصوت ألف ليلة ، أما
القمر فقد ارتفع فوق الصارى نائيا بنفسه عن برج الاضواء
وصخب الهاتقين •

— ليلة بدیعة ولكن اجمل ما فيها هو أنت •

—أنت ظريف جدا •

— هل يعجبك القطار ؟

— ولو أنه مربع أحيانا !

جلسا جنبا الى جنب فى المقعد الأخير من العربة الأخيرة ،
ولحظ ابتسامتها وهو يختار المكان المنعزل فتوترت أعصابه ،
وتناول يدها فى يده والقطار يتحرك • سار القطار على مهل
حتى اعترضته مضبة فاندفع صاعدا وضاعف اندفاعه • وهو
يهبط • وجرى بسرعة فوق متتابعات من المرتفعات والمنخفضات
فطوقها بذراعه • ودار حول منعطف فى تمهل مكرر وراح
يرتقى جبلا فى صمت ينذر بالخطر ، ثم انحط من عل كأنما
يهوى فى فراغ وارتفع الصراخ • شد على خاصرتها فمال
رأسها الى ذراعه فطبع على شفتيها قبلة طويلة • لم يكد ينتبه



ورأى الفتاة تغادر سيارتها فغادر سيارته ، تبعها محاذراً
حتى يبعد عن مجال الأعين التي توقع تجسسها عليه -

بعد ذلك الى معاكسات القطار حتى رجع الى المحطة • وقال
لها ومشروعات الليل تتواكب فى رأسه :

– خير ما تفعل الآن أن نستريح فى مشرب •

وتبادلا « صحتك » مرة أخرى • وتحرك دبيب النشوة فى
قلبه • ونظر فى مرآة مكلفة بورد من البلاستيك فوق الطاولة
فأعجبه شاربه الأسود وخداه الموردان • وحدثها عن الليل
فأحنت رأسها بالإيجاب ، ولما غنى الصوت الملائكى سألها :

– تحبين الغناء ؟

فأجابت بحماس :

– سألرقص •

– وإى لعبة تودين ؟

– الحظ •

وجدا حلقة الحظ كثيرة الزحام فبلغا سياجها بعد
مشقة • وتناول كل منهما حلقاته الخشبية الخفيفة وهو
يتفحص الأهداف المنشورة فى تقارب معجز للمصائد • سددا
نحوها الحلقات فطاشت جميعها • وابتاعا مجموعة ثانية
وثالثة من الحلقات وهو يحلم طيلة الوقت بعملية فضية لا يدرى
شيئا عما بداخلها على حين ركزت هى على زجاجة فلير
دامور • وبعد الجهد والبذل أصاب زجاجة نبىذ وكسبت هى
عروسا عارية • وذهبوا وهو يفض سداة الزجاجة ثم تناول
منها شربة بعد أخرى • وركبا فى أثناء ذلك الساقية فارتفعت
بهما الى جبين القمر ، ثم رقصا فوق سطح الغريال ، ودارت
الخمير برأسه فأفرط فى مداعبتها حتى همست فى أذنه :

– حذار أن تلتفت لنا الأنظار •

فقرصها فى ساعدها البيض فقالت بشئ من الحدة :

– لا •

وأنتزعت منه الزجاجة فأحكمت سدها ووضعتها فى

الصندوق الكرتونى لحق العروس • واستقلا ترولى غابة الأشباح فالقارب المتزلق ، ثم وجدا نفسيهما أمام وادى الخيه المعروف بحجرة جحا • هتف بسرور :

– عز المطلب :

لكنها قالت بفتور :

– لا أحبها ، سنتيه فى سرايبها حتى نفقد الصبر •
فتناول يدها ضاحكا ثم دخلا • قطعاً أمتاراً فى مدخل مربع ينتهى بسد فى الأمام ، وعن اليمين وعن اليسار نفقان يستديران الى الداخل • ولاحظت تردده بين النفقين فقالت محتجة :

– من أولها حيرة !

فمال الى اليمين قائلاً « لنكن من أهل اليمين » • سارا فى نفق مستقيم مضاء بفانوس يتدلى من السقف ، فانتهيا الى حجرة مستطيلة بها منفذان غير المنفذ الذى دخلا منه ، ووجدوا بها بضعة أفراد وكان أحدهم يقول :

– هلكت من التعب •

فصاح آخر :

– الظاهر أننا لن نخرج الى سطح الأرض مرة أخرى !
اتجه بها نحو المنفذ الأيمن فسارا فى ممر بدا ضيقا ثم أخذ فى الاتساع حتى اعترضته ثلاثة أبواب •

قلب عينيه بينها فقرأ على أوسطها بالقلم الرصاص « اسخل من هنا فانه مجرب » فتمتم :

– دعابة مأكرة لأحد اللاعبين ، على اللاعب هنا أن يعتمد

على نفسه •

– لم تختار باباً دون آخر ؟

– العبرة بالتجربة •

– ولكن سنبدد وقت الفسحة •

– أليست حجرة جما ضمن الفسحة ؟

مرقا من الباب الأيمن الى ممر قصير أوصلهما الى ميدان مسقوف تتعدد الأبواب على محيط دائرته ، وتكتظ باحثه بالنساء والرجال • قهقه البعض وعبست وجوه فى نرفزة حقيقية • وقال رجل :

– لو أن أحدنا أصابه مكروه فهل يترك حتى يموت ؟
– لم لا يوجد مندوبون عن الادارة لتقديم المساعدة عند الضرورة ؟

– هل ننادى أحد المسئولين ؟

– نادى كثيرون ولا مجيب •

دخل حسن من أحد الأبواب فتخبطا طويلا من حجرة الى ممر ومن ممر الى سرداب ومن سرداب الى نفق ، وتيار الحائرين يصادفهم فى شتى الاتجاهات • ولم ينقطع لحظة واحدة عن الضحك أو الغضب أو التعليقات • وتوقفت سعاد وهى تقول فى رجاء :

– لمرجع •

فضحك قائلا :

– ماذا يعنى الرجوع أو ماذا يعنى التقدم ؟ • نحن نسير

بحسب !

– ألا تذكر من أين أتيت ؟

– كلا •

– وطبعاً لا تدري أين تذهب !

– هذا واضح •

وهى تتنهد :

– تعبت وضجرت •

– نحن معا وفى هذا ما يكفى •

— ألا تسمع أصوات الغيظ ؟

— وأصوات الضحك ؟

— سنتخبط حتى موعد الاغلاق .

سر اللعبة لا يمكن أن يعرف في أول جولة فليس أمامنا إلا أن نجرب حظنا .

واستأنفا السير والتخبط ، وتجربة أبواب لا حصر لها وأنفاق وسرايب لا تنتهى . واشتكت أصابع قدميها فحذرت من الاضطراب الى حملها بين ذراعيه . وزادت جزعا عندما رأت رجلا قد اقتعد الأرض يائسا فى انتظار أن ينتشله رجل من الادارة عند موعد الاغلاق . وطال بهما اللف والدوران والتخبط حتى تجهم الوقت ثم دفعا بايا بحركة روتينية ميكانيكية فاذا بباب الخروج يطالعهما ! . قام الباب على مبعده ثلاثة أمتار بهيجا رقيقا مضيئا محبوبا ، وتبدت ساحة لونا بارك من خلاله سباحة فى الانوار والانغام . غادرا حجرة جحا وهما يتصببان عرقا فذهبا الى حديقة مشرب الجمعة وطلبا بيرة . وضعت صندوق العروس على كرسى جنب حقيبتها وسلت قدميها من الحذاء وراحت تقبض أصابع قدميها المخضبة وتبسطها وهى تلحظه بعتاب . وبمجرد أن استقر الشراب فى بطنه دار رأسه وتفاعل النبىذ والبيرة بحال غير ودية .

قالت :

— أنت عنيد أكثر مما ظننت .

— هكذا يجب أن تكون الفسحة فى لونا بارك .

— توجد ألعاب لطيفة وأخرى سخيفة .

— الأفضل أن نجريها جميعا .

انتعشت بالشراب فطلب قدينين جديدين وهو يقول :

— لم تبق الا لعبة الموتوسيكل •

قطبت متسائلة :

— تقصد لعبة الموت ؟

— لم تسمى بلعبة الموت رغم أنه لا يموت بها أحد !

— لا يسرنى أن أرى راكب الموتوسيكل الذى يبدأ دورانه فوق الأرض ثم ينتهى وهو يدور حول السقف !

— هى اللعبة الوحيدة التى لم نشترك فيها بعد •

— لا .. لا ..

— لم لا ؟ ، ألا ترين أنها أشد إثارة من جميع سابقتها ؟

— لن تتحملها أعصابى ، ولا معنى لها •

— بغيرها ستظل فسحتنا ناقصة !

— فلتبق ناقصة فهذا أفضل •

— ما دمنا قد جئنا فعلينا أن نجرب كل لعبة •

— لا تجعلنى أندم على معرفتك •

أذعنت إزاء عناده وهى متبرمة • وشربا للمرة الثالثة ثم دسست قدميها فى الحذاء وتأبطت ذراعه مرة أخرى • سارا على مهل اضطرارى فوق سيقان مسترخية من الجهد • ثقل رأسه بالخمار وعادوا الألكم أصابع قدميها • والزياط من حولهما يشتد وأفواج جديدة من الناس تقدم رغم انتصاف الليل •

وتوسط القمر السماء ، سماء صافية الا من سحائب رقيقة متباعدة عبرت سطحه كإنفاس حارة فى جو رطيب •

وترامى اليهما أزيز الموتوسيكل وهما يقتربان من زحمة المنتظرين أمام الباب • ضغطت ذراعه قائلة :

— كم أنك عنيد !

فقال وهو يهز رأسه :

— المؤسف حقا أن الفسحة ستنتهى •

وأدار نحوها وجهه بشوق وحنان ثم داعب ملتقى
حاجبيها بأبهامه ليزيل عنه تقطية منعقدة ، ولم يكف حتى
منحته ابتسامة غير سعيدة •

موجتبی

المدينة الكبيرة تنفض النعاس فى صمت السحر • وقبيل
الشروق تخضب الأفق بضمرة قائية • وقطرت السماء الباهتة
زحمة فسطعت انفاس دافئة : استند عسكرى الداورية بجسر
النجلاء الى جذع شجرة راقعا رأسه الى الأفق عبر النيل ،
وبصق ، ثم تغم :

– يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !
وذابت الحمرة القائية فى وهج الشمس ، وانهارت الأشعة
على الكائنات • وسعى فوق الأرض باعة وعمال ، وسرعان ما
التمعت الحياة بقطرات العرق وأكثر من صوت قال :

– يا له من يوم !
واشتري أحمد علبة البلمونت ثم مال الى الخليفون على
طاولة الدكان فأدار القرص :
– نادرة ؟ • صباح الخير •

– •••••
– كلا ، لم أذهب الى المصلحة بعد ، أنا أكلّمك من دكان
السجائر •
– •••••

– فعلا ، والطريق أشد حرارة ، ولكنه جو مناسب لنزهة
مسائية على شاطئ النيل ؟
– •••••

– حسن ، السابعة مساء عند جسر الجلاء •
ارتفعت الشمس وسط هالة ناصعة قاسية • واستكن
الهواء فى كينونة ثقيلة متخلقة ، وقرص الذباب الخدود فى

بلادة وتكتل كالسخام فوق صناديق القمامة • ونشرت
الجماهير المتدفقة نحو محطة الباص الجرائد فوق الرؤوس •
وقال رجل :

— الفول يغلى فى بطنى !

فأجابه الآخر :

— اذن فكيف تكون الظهيرة ؟ !

وخلف المحطة مباشرة تبدت جباه العمال العاكفة على
صف الحروف من نوافذ بدروم المطبعة وترامت أصوات الآلات
بلا انقطاع •

وشابت القبة الباهتة صفرة كثيبة ضارية فى حواشيتها
الى الاحمرار • ونزت الأرض رطوية ساخنة أما الهواء
فاختنق برائحة كريهة كأنما يتنفس دخانا • وفى إدارة
الحسابات أغلقوا النوافذ ورشوا الأرض الخشبية الكالحة
بالماء ، وأضاعوا مصباحا واحدا ، واستعملت الأضابير فى
التهوية ، واتبعت نصيحة مجرب باحتساء الشاي الساخن ! •
وقال المراجع الكهل :

— صدقونى لم تعرف البلاد حرا كهذا الحر !

— مؤكد أن الحرارة جاوزت الأربعين •

— أو الخمسين ، نحن نحترق فى الواقع •

ورفع المدير عينيه المظلمتين من هبوط القلب وقلب فى
الوجوه نظرة خابية حاقدة وقال :

— ستعود الادارة بعد الظهر لانجاز الميزانية ••

أطبق الصمت فلم يناقشه أحد • وهمس كاتب :

— الحقوق وجد فرصة للانتقام !

— صبرك ، لن يعتمد به الأجل حتى منتصف النهار !

وفى الميدان ارتطم مقدم تاكسى بمؤخرة آخر عند اشارة
المرور • وغادر السائق المتقدم مكانه ليعاين أثر الارتطم •

مال فوق الفانوس الخلفى يسبقه شعر صدره المتلبد البارز
رن بين شقى قميصه وهو يجفف جبينه بكمه ، ثم رمى السائق
الآخر الذى لحق به بنظرة ملتهبة فتمتم الآخر :

— وقف التاكسى فجأة فلم ..

فقاطعه بحدة :

— حطمت الفانوس ..

فراح يجفف وجهه بمنديل ضارب الى السواد وهو يقول :

— التواءة بسيطة ليس الا ..

صاح به مطاردا بلسعة الشمس :

— أنت أعمى !

وتماسكا بشدة ثم انهالت اللكمات ، وجاء عسكري المرور

جريا وهو يسب ويلعن ..

وتريعت الشمس فى كبد السماء كرة من نار تقذف حمما .
وانتشرت الصفرة الكثيبة الضاربة الى الاحمرار لطخات
متفرقة فى الاسبم الضارى . ونفثت الأرض أطنانا من الحرارة
اللافحة المركزة بالبخار ، وانطلقت الباصات مائلة الى
الجانب الأيمن من ثقل حمولتها ، وتلاصقت الأجساد البشرية
حتى انصهرت فى جسد واحد هائل متعدد الألوان والتقطييات
متوحد العناء والعذاب ، واستقرت فى الأعين المتطلعة الى
الطريق نظرة خاملة مستسلمة متقززة مثالة متصبره .

— العرق يتجمع ويهبط فى خطوط كالحشرات ثم يستقر

فى الحذاء ..

— يوم من أيام الجحيم ..

— أذن كيف يعيش الناس فى السعودية ؟

ولسبب ما انفجر السائق فى غضب قاذفا بسبيل من
اللعنات الفاحشة فصكت آذان السيدات والأوانس وكانهن لم
يسمعن البتة ، وواصلن وجوههن بلا مبالاة ..

واخذ مرسى صاحبه الى قهوة وبار آسيا وهو يقول :
- لن تعرف حقيقة اليوم الا فى جرائد الغد ، كم تظن
درجة الحرارة ؟
- فى الظل ؟

ضحك مرسى عاليا وهو يصفق مناديا الجرسون ثم قال :
- هاك طريقتى المقتبسة عن الانجليز الذين يعيشون فى
المناطق الاستوائية ، أن أشرب حتى تلتسنى الخمر ، هناك لن
أفرق بين ديسمبر وبين أغسطس ..

وقنع عساف وزوجه من الغذاء بأكلة جبن ويطيخ .
وتجرد من ملابسه ثم استلقى - كما ولدته أمه - فوق الكنبه ،
وفعلت حرمه مثله فوق الفراش . على ذلك لم يهنأ بالنوم
لتسرب العرق المالح من جفنيه وانحداره أحيانا الى فيه
الفاغر . استيقظ مرات ليحفف وجهه ثم يستغرق فى النوم ،
ولكنه صبحا أخيرا على ضوضاء وزياط منزعا حقا . نهض
متسخطا فجفف جسده بالمفوطه ومضى الى الشيش لينظر ماذا
يجرى قرأى الغلمان يلعبون الكرة فى الطريق تحت قذائف
الشمس ! وخلف الهدف مباشرة نام سائقو الكارو على الطوار
فى ظل الجدران . لعن النسل والتناسل ثم رجع الى الكنبه
يبتسم ساخرا :

- يلزمنا جهاز تكييف هوا .

فتردد شخير زوجه عاليا .

وانداحت الصفرة الضارية الى النعمرة وانبثقت منها
اشعاعات تحمل رسائل من الكابة والضجر . وتصاعد
التثاؤب والتأوه . ونقد صبر ست عليات زوج بياع الثلج
فوضعت ريع لوح ثلج فوق رأسها ، ثم مسحت به عنقها ، ثم
أرسته فوق صدرها طويلا ، ولم تمض ساعة حتى ظهرت عليها
أعراض الحمى .

وأمام قهوة الحرية سقط عبد الرحيم القاضى المصاب
بضغط الدم على جنبه ، وصدرت عنه تموجات تشنجية ،
وانكمش جانب فيه وسالت منه رغبة ، ثم فاضت روحه •

وحتى العصر لم يطرأ تغير يذكر • خف توهج النهار
قليلا • وبهتت الصفرة الكثيبة المتداحة فى السماء • ومالت
الشمس ولكنها ظلت تصب النيران صبا • وانعقدت الرطوبة
حول الأجساد مادة لزجة ذات كثافة ملموسة • ومع أن الشعر
هو أحب القراءات الى حسن الزفتاوى الا أنه قال بفتور :

— كلمات •• كلمات ، لا توحى بشيء ، أين ذهب الشعر ؟

فأجابه صديقه حمدي مغمض العينين ملصقا زجاجة
الاسباتس بجبينه :

— عبتا تبحث عن شيء له قيمة فى هذا اليوم •

— حتى الحب مات !

— وحتى الجنس فقد نكته الحيوانية الحريفة !

وصادف عسكري الدورية بحى الطبلية عرية خيار يدفعها
صاحبها فى تراخ فثار غضبه ثم انقض على العرية فنزع
مقبضها من يد البياح ورفعها الى أقصى ذراعه حتى اندلق
الخيار على الأرض وصاح :

— ألف مرة قلنا ممنوع مرور العربات !

وصرخ البياح وتجمهر الناس • وانتبه العسكري المنقول
حديثا من قسم قصر النيل الى قسم الجمالية الى أن التعليمات
المطبقة على منطقة قصر النيل لا تنطبق على حى الطبلية ،
فشعر بحرج مركزه ، ولكنه أبى أن ينهزم أو أن يعترف بخطئه
فصاح مستزيذا من الغضب :

— كيف تمسب الدين يا جاحد ! •• تسب الدين ! ؟

وأقسم الرجل بالطلاق ولكن أكثر من قسم بالطلاق قرامت

من الأركان والنوافذ • وتابع الحادثة بفتور الواقفون حول مشرب السوييا ، يلهثون ويشربون ويتصبّبون عرقا ، والذباب يتلاطم فوق رؤوسهم •

واستقرت أشعة الشمس المائلة فوق الجانب الغربى لمعمارة النجمة بجاردن سيتى حيث يقيم إبراهيم سمهان المستشار • واستيقظ المستشار من قيلولته ليجد نفسه غارقا فى بحيرة من العرق • هز رأسه فى ذهول ونظر طويلا الى صورة جسده المنطبعة فوق الفراش • كيف حدث هذا ؟ • وماذا يصنع اذن جهاز التكيف ؟ • انزلق الى الأرض وهو يترنخ فى جلبابه الفضفاض ، ومضى الى الجهاز ، فتبين أنه متوقف • فسد الجهاز أم انقطعت الكهرباء ؟ • وأدار المفتاح الكهربائى فوجد الكهرباء منقطعة • لا شك أنها انقطعت بسبب ارتفاع الحرارة • وهذا يعنى أن الفريجيدير أيضا متعطلة ، فى هذا اليوم الملعون • وهو وحيد فى القاهرة بينا تصيف الأسرة فى الاسكندرية • وحيد بكل معنى الكلمة فحتى الخدم فى الاسكندرية ، ولولا اجتماع مجلس ادارة المؤسسة المنتدب اليها لما جرى عليه هذا الحظ التمس ، وذهب الى الحمام وفتح الفريجيدير ليبل ريقه الجاف ولو بشرية فاترة ولكنه رأى صرصورا لا بدا فى عنق القارورة الوحيدة التى ملأها بنفسه قبل النوم ! • تحول عنها غاضبا عابسا الى صنبور الماء وفتحه ولكنه لم يقطر نقطة واحدة • رياه • غاض الماء من الأدوار العالية كما يحدث كثيرا فى الأيام القاطنة • أى جنون ! • ضائع فى صحراء • كم أنه ظمآن ، وكم أنه متلهف على دش بارد ! • وغادر شقته فى الدور الثامن الى الطرقة الخارجية • المصعد متوقف طبعاً • كل شيء متوقف خرب فى هذا اليوم الجهنمى • ونظر من فوق الدرابزين وصاح بأعلى صوته :

— عم محمد •• عم محمد ••

لا مجيب • وكبر النداء دون جدوى • رياه ما العمل •
ظلمان وحران ولا بد أن يذهب الى المرحاض أيضا • وإذا به
يرى خادم الشقة التالية له وهو يصعد خطوة فخطوة ، ينوء
بحمل صفيحة مملوءة بالماء • وأنزل الخادم الصفيحة على
أرض الطريقة حتى يسترد أنفاسه • وقف شاحب الوجه يصدر
يعلو وينخفض • ونظر المستشار ناحيته فتبادلا نظرة طويلة
وهما صامتان • وضمن المستشار نظرتة رجاء مستحيلا
فتجاهله الخادم وأرضى جفنيه زائفا مما قطع بأنه تلقى
الرسالة ورفضها • له حق فليس في الامكان أن يكرر عمله
القذائى مرتين ولكن ما العمل ؟ • ونظر المستشار الى الماء
المترجح في الصفيحة الناصعة فازدرد ريقه الجاف بصعوبة ،

ثم همس وهو يبتسم متوددا :

— تسمح لى بملء كوب ؟

فقال الخادم باستحياء :

— تفضل يا بيه !

وهرع الى الداخل ثم رجع بكوب فملاه ، وصبه في جوفه
دفعه واحدة ! وجعل يستشعر الماء وهو يرشح من مسامه ،
ثم تمتم :

— ماء دافىء •

— ينصب من الحنفية كالنار ••

وتنكر مطالبه الضرورية الأخرى فاستأنن في ملء الكوب
مرة أخرى فأنن له الخادم بتسليم لا حيلة فيه • ورجع الى
الشقة وهو يقول ساخطا « بلد غير مستعد للحل مع أن ثلاثة
أرباع عامه صيف ! » •

وتوارت الشمس في المغيب وراء ستار دموى ولكن الجو
لم يتحرر من قمقمه المنصهر • وأذاع الراديو أنباء الموجة

وتفسيراتها الفلكية والدرجة الثامنة والأربعين التى بلغتها فى
الظل • ورقدت المدينة فى همود تحت العذاب الأخير • وانتظر
أحمد عند جسر الجلاء حتى وافته إليه نادرة فى فستان رمادى
عارية الذراعين والساقين •

— ماذا فعلت اليوم ؟

فأجابت وهى ترعش راحتها المبسوطة فى استفتاح :

— أوه •• يوم لن ينسى ••

ذهبا الى مجلسهما المعهد بالكورنيش ولكن الشاطئ
كان مكتظا بالبشر لا موضع فيه لانسان • اقترح أن يمضيا
سهرة فى سينما مكشوفة ثم يعودا الى النيل بعد منتصف
الليل • ولما رجعا لم يكن الشاطئ قد خلا ولكن كان ثمة
موضع • وافترشا الحشائش بعد أن أزالا عنها قشر الفول
ومزقا من الورق ، ولم يكن فى الجو نسمة واحدة •

— مات الهواء ؟ !

فأجاب بضيق :

— شيء أئتم منه مات فينا •

— لن نحتمل يوما آخر كاليوم •

ومضى المكان يخلو بسرعة نسبية حتى وجدا نفسيهما
منفردين • أخيرا • ولف ذراعه حولها فشعر فى جنبه
بسخونة وفغمت أنفه رائحة عرق قاتر • وانعكست أضواء
الفوانيس على ماء ساكن راكد لا يلعب ولا يبهج :

— انن متى تنكسر حدة الحرارة ؟

— آه •• متى ؟

وخيل إليه أن حرارة الحب تزدرد حرارة الجو بسرعة لم
يتوقعها ، غير أن قدما ثقيلة دقت الأرض فى الظلام الصامت •
ومن الظلمة المضاعفة التى تلقبها شجرة وارفة مرق شبح
العسكري فى ضوء المصباح • تعلق به رأساهما ثم همست :

— لا يوجد أحد غيرنا ..
فشبك راحتيه حول ركبته وغمغم حانقا :
— يوجد الحر ..
— لا تعط له فرصة للتحرش ..

مر العسكري أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة
غامضة • ابتعد حتى أوشك أن يختفى ولكنه توقف • وتنحني •
ثم استدار راجعا حتى وقف على مبعده مترين أو ثلاثة • لبث
واقفا في عناد كأنه الحر دون أن ينبس • توقعا أن يقترب
أكثر أو أن يتكلم ولكنه لم يفعل • ولكزته بكوعها هامسة :
« هيا » • قاما معا ، وألقيا نظرة أخيرة على الماء الراكد ،
ثم ذهبا •

وشئ غريب كزبه زحم الجو ، ذو رائحة مريضة وشخصية
مبهمة ، وقد انمقد حول مصابيح الطريق كالضباب ، وانتشر
تحت النجوم قنارات خابية • وتحرك العسكري ببطله شديد ،
وبصق ، ثم تمتم :

— قلنا انه يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !



- مر العسكرى أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة غامضة
- ابتعد حتى أوشك أن يختفى ولكنه توقف ، وتنحنع

عابرو السبیل

اندماج الشارع الكبير فى حياة هؤلاء الناس • شوارع قصر النيل • ما بين السابعة والثامنة صباحا يقطعونه ثم يتفرون الى اماكن أعمالهم • وتتكرر الرحلة فى نظام فلكى على مر الأعوام • بدأها كثيرون وهم فى ريعان الشباب والقوة وواصلوها حتى أدركتهم الشيخوخة وتخيلت لأعينهم النهاية • ومنهم من ينقطع دون سبب معروف للآخرين اذ أنهم يترافقون فى الطريق ولكنهم لا يتعارفون • والعين تلقى نظرة عابرة فلا تكاد ترى ، كأن الآخر شجرة مغروزة فى الطوار ، وربما استيقظت لسبب ما فتري بدهشة العوالم الغريبة الماضية فى سبيلها ، كل عالم وحدة من الأسرار والأفراح والأتراح لا تدرى شيئا عن الآخرين ، ولا تجد وقتا للتعرف الى ذاتها وتجهل كل الجمل مصيرها ، عند ذاك تتفجر الألسنة فى غزارة ولكن تشح الأجوبة حتى الارهاق ، وتشمخ السماء بصفحتها - الصافية أو الملبدة تبعا للفصول - فلا تشفى غليلا ولا تبيد حيرة •

ثابر على تلك الرحلة ثلاثة أشخاص ، رجلين مصريين وامرأة أجنبية • بدأها الرجلان حوالى عام ١٩٢٥ ثم ظهرت المرأة بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانوا فى ذلك الوقت شابين وشابة • وكان أحدهما طويلا نحिला يتميز بعينين حادتين وسمرة غامقة وحركات عصبية ، أما الآخر فكان معتدل الطول والقدر هادئ الطبع • وبدت الفتاة متعة للبصر بعينيها الزرقاوين وشعرها الفاحم وبشرتها الحلبيية وجسمها الرشيق. وكانت - كذلك الشاب الطويل - يسيران فى اتجاه ميدان الأوبرا ، أما الشاب الآخر فيتجه نحو ميدان سليمان باشا ، ويتقابلون عادة فى منتصف الطريق أو نحو ذلك ، ولم يترك

أحدهما فرصة للقاء الا ويملا من الفتاة عينيه ، المعتدل يرمقها بحياء وبلا غاية الا ابهاج الروح والحواس ، أما الآخر فيلتهمها بنظرة حادة ، ليست نظرة ولكنها كلام وفعل وعريضة ، ورئى مرة وهو يحييها وهى تتجنبه مبتعدة عنه مسرعة ، ذلك أنها كانت فيما بدا فتاة جادة نشيطة تنطلق بجدية وعزم العاملات ، لا تكاد تنظر الى غير الطريق ، وإذا التقت عينها بعين الشاب المعتدل قبل القدر الذى يحتمه حب الاستطلاع أو ملايسات المشى فى حدها الأدنى • وجعل الشاب المعتدل يسترق النظر الى الآخر بامتعااض ، ويتابع مناوراته بحق واشفاق متوقعا أن يراه ذات صباح والجميلة تتأبط ذراعه • وبقدر ما كان يلعب قخته بقدر ما كان يعجب بها على نحو خفى ، ويتمنى فى أعماقه بعضا منها ، وأحزنه جدا أن يتفق اتجاههما فى الطريق على خلاف اتجاهه • ومضت الكواكب الثلاثة فى مداراتها دون أننى تغير فى علاقاتها المشتركة ، أما عن كل فى ذاته فقد تتابع ظهور خواتيم الزواج فى أيديهم ، سبق المعتدل وتبعه فى نهاية العام الطويل وأخيرا لحقت بهما الحسناء • ورغم ذلك فلم يقل الشغف بها كثيرا وإن بدا أن الطويل قد تولى بصفة شبه نهائية عن أحلام المغامرة • ولم يتغير شيء مما بين الثلاثة عندما قامت الحرب العالمية الثانية وإن تكن الدنيا قد اندفعت بجنون نحو التغيرات الفاسدة • زخرقت الصحف بعناوين المعارك الحمراء ، وتناقل المارة الأنباء المثيرة ، وظهر الانجليز المديون والعسكريون بكثرة حتى فى تلك الساعة المبكرة ، وفتح ثلاثة بارات فى الشوارع العتيد ، وانتقلت عدوى التغيير الى الفتاة نفسها أسوة بالدنيا من حولها ، فثقلت مشيتها وشحب لونها ثم تكور بطنها وانداح تحت الفستان التقليدى المسترسل بلا حزام ، أجل لقد حبلى العروس الفاتنة • وتفحصها الطويل بعين صقر وبشيء من الغيظ متذكرا امرأته ولكن امتلات عيناه

بالعطف والشهود الغامض • وحملت المرأة مرة ثانية قبيل انتهاء الحرب ، وثلاثة أيام حرب فلسطين ، ولمصل أحدا من الثلاثة لم يكن يقطن حقا الى الزمن الا عندما يقع بصره على الآخر • امتلا عود الحسناء وتوارى في الذاكرة القدر الرشيق المشوق ، وأحدثت بالعينين الزرقاوين أنصاف دوائر خفيفة لم تعد تخفى ، واستقرت بهما نظرة رزينة ، رزانة الاعياء لا رزانة الدلال والصدود التي عرفاها قديما • واشتد نحول الرجل الطويل وجرى المشيب في سوافه وشاربه وبرزت عظام وجنتيه ، ومع أن المعتدل لم ير من تغير ذاته سوى شعيرات بيضاء الا أنه لم يشك في مدى تغيره الحقيقي كلما نظر الى رفيقه فانطوى صدره على توتر غامض كأنه صدق بعيد جدا لما يقع حوله في التاريخ والطريق • واستمر دوران الكواكب الثلاثة خلال أحداث جديدة ، فقد نشب في القتال قتال مريع واندلع حريق القاهرة ثم انفجرت ثورة يولية • تزلزل المجتمع من جنوره وانهار البنيان المتداعي وأخذ نظام جديد في التبلور ، وإذا بالاعتداء الثلاثي يعترض الطريق كثور أعمر • وفي اتون حرب العدوان قدر لأولئك الثلاثة أن يجتمعوا في مكان واحد لأول مرة • فقد انطلقت زمارة الانذار وفرقت المدافع وهم يسيرون أمام مشرب لاجيون • لجأ ثلاثتهم الى المشرب باندفاع عفوى فوجدوا به خادما واحدا يغسل أرضيته ، ومائدة واحدة صالحة لاستقبالهم في أقصاه • شقوا سبيلهم اليها خلال قوائم من الكراسي المترصة فوق بعضها ، ثم وقفوا مترددين قلقين ، ثم جلسوا - بدعوة من الخادم - حول المائدة المنفردة • وكلما ترامى انفجار تبادلوا نظرة ياهقة دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، وكان الطويل أجراهم على خرق جدار الصمت فقال :

- ولا أيام الحرب العالمية ••

فقال الآخر بحق :

– المجرمون ! .. سرعان ما نسوا هوانهم تحت أقدام هتلر !

وتواصل التعليق دون أن تشترك المرأة فيه ، ثم خف الضرب درجات فعاد الطويل يقول :

– لا مدعاة للخوف فهم يضربون الأهداف .

وحديثه المرأة بنظرة جائعة للتصديق فابتسم اليها .
تبست عن قرب معتلية ذروة النسيج الأنثوى وان شارف حسنهما الوداع . وقال الطويل مدفوعا بإريحية طارئة :

– خير ما نفعل أن نتناسى ما يقع فى الخارج .

ثم وهو يبتسم من طاقم نخسيد :

– نحن نتقابل كل صباح منذ زمن بعيد جدا كالحلم ..

تفكر الآخر مليا ثم قال :

– منذ عام ١٩٢٥ .

فالتفت الطويل نحو المدام وقال :

– المدام ظهرت بعد ذلك ؟

انتزعت نفسها من التركيز المقعم بالقلق فى الخارج

وهزت رأسها بالإيجاب .

– عمر طويل مر دون أن تتبادل كلمة واحدة .

وضحك ثم استلرد :

– لذلك لا أعجب لخصام أمتين أو ثلاث !

وساءلت المرأة نفسها بتوتر :

– متى ينتهى الضرب ؟

فقال بلهجة ودية جدا :

– لا تخافى يا مدام ، سينتهى الضرب عاجلا ويذهب كل

منا الى طريقه ولكنى أود أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق فكرة

جميلة خطرت لى الآن فقط !

نظر اليه المعتدل مستطلعا فى غير حماس على حين نظرت
المرأة فى ساعة يدها •

— سوف أحال على المعاش بعد شهر واحد ، أى أننى
سأقطع عن رؤيتكما بعد تلك العشرة الطويلة العزيزة ••
فقال الآخر :

— رانا أيضا سآحال الى المعاش فى نهاية هذا العام •
— هذا أدعى الى تحقيق الفكرة ، وهى أن نحتفل بذكرى
لقائنا الطويل على مدى أكثر من ثلاثين عاما !

وقلب وجهه بينهما فى حماس وقد أخذ الهدوء يخيم فى
الخارج رويدا وان لم تطلق بعد زمارة الأمان ، ثم قال :
— أود أن أدعوكما الى عشاء بسيط بمطعم كريستىم
بالهرم ، ما رأيك يا أستاذ ؟

فقال الآخر بخبرة سلبية :
— بكل سرور ان سمح الوقت !
— ستقبل الدعوة حتما خصوصا اذا قبلتها المدام ، ما رأيك
يا مدام ؟

انتزعَت المدام نفسها من قلقها مرة أخرى وتمتمت :
— لكن •••

— لا لكن ألبتة ، انه سلوك لا عيب فيه عندكم ، ودعوتى
واضحة البراءة ، ورفضها غير انسانى •••

ابتسمت ابتسامة خفيفة اعتدها الرجل قبولا فبادر يقول :
— شكرا ، سنتفق على الميعاد فى صباح قريب •

اتفقوا على الميعاد صباح اليوم الثالث لوقف القتال •
وتقابلوا فى ميدان التحرير ثم استقلوا تاكسيا الى كريستىم
فبلغوه قبيل الغروب • وفى أثناء ذلك تم التعارف بينهم فقدم
الطويل نفسه قائلا « على بركة ، مترجم » وقال الآخر « سيد

عزت ، مدير حسابات « وقالت المدام « مدام ماتياس ، خياطة
فى ماى ستار » • وجلسوا فى حجرة خاصة يحجبها عن بقية
المحل باب موارب يقوم خلفه براقان • وأوصى على بركة على
عشاء حمام وكبد وأمر بكونياك • ونظر الى سيد عزت ورفع
كاسه قائلا :

— لنشرب نخب شباب عام ١٩٢٥ ، أما انت يا مدام
فما زلت شابة !
فقالت ضاحكة :

— لا •• لا •• لا قائدة من الكذب ، انت تعرف وهو
يعرف •

وما كادت الكئوس تفرغ حتى طلب غيرها وهو يقول :
— لا ترفض ، دعونا نشرب ، لن نسكر على أى حال ،
وهى ليلة العمر •

ومضت الألفة تحل محل التحفظ ، ويشيع الدفء بتأثير
الكونياك ولباقة على بركة وحيويته • وراح يقول :
— كان يجب أن نكون أصدقاء حميمين ، يتبادلون المودة
والأسرار ، ولكن فات الوقت للأسف ، فلم يبق لنا الا أن نذكر
شيئا من الأمور الجوهرية جدا لتمام التعارف ، أسعد حادث
فى حياتنا مثلا أو أبقاه أثرا فى نفوسنا ؟ !
رحب سيد عزت بالاقتراح لا لشيء الا لأنه يجد ما يقول ،
فقال :

— لعل أسعد حادث صادفنى هو نجاح ابنى الأكبر فى
الثقافة العامة بعد ما يشبه اليأس ••
ونظر الرجل الى المدام مستطلعا كأنما كانت هى الهدف
الحقيقى لاقتراحه فابتسمت قائلة :
— زواج ابنتى الكبرى ، ولكن الحادث الذى لا أنساه هو
وفاة زوجى منذ أربعة أعوام •

كاد التهلل للخبر يقلت من أسارىره لولا أن تداركه بتقطيية
مصطنعة ثم هن رأسه فى رشاء • وانتهن فرصة الصمت الذى
تلا ذلك فطلب الكونياك لثالث مرة ، ثم ضحك مفتتحا صفحة
جديدة وقال :

— أهداشى أنا لا تخلو من غرابية ، فأسعدهما كان وفاة
قريب آلت الى تركته ، وأتعسها جاءنى منك أنت يا مدام !
— أنا !

— أجل وأنت تعرفين السبب •
فقالت متشجعة بفعل الكونياك الخفى •
— تعنى مطارداتك لى فى الشارع ؟
— أعنى اعراضك عنى حتى قيل الزواج •
• — يا عزيزى ، أنت لم تكن جادا ••
— كيف عرفت ؟

— أنا أفهم ، أنت لم تكن جادا ••
وقال سيد عزت وهو يفرغ ثمالة كأسه :
— أنا موافق •

— أنت أيضا ! ، هل اختفت نواياى الطيبة الى ذلك الحد ؟
— لم تكن هناك أية نية طيبة !
— وأنت ؟ ! ، كنت تأكلها أكلا وتأكل نفسك !
فقال سيد عزت بتصليم :
— لا أنكر ذلك !

ضحك الرجل فى شماتة أمام مدام ماتياس فقالت :
— لا أصدق •
— لماذا ؟

وجاء الحشاء مع جديد من الكونياك فأقبلوا على الطعام
والسؤال معلق والاهتمام به يعمق الى غير نهاية ، وقالت مدام
ماتياس وقد احمرت أنفها من الشراب :

- لى معك حكاية •

- أنا ؟ !

- كنت تنظر بقوة ، كل صباح ، قلت لنفسى حتما سيكلمنى
يوما ما !

- حسبك لم تلحظى شيئا البتة !

- هه ! ، قلت سيكلمنى . وما آخره الا انه مؤدب اكثر من
اللازم على خلاف ••

قاطعها على بركة بضحكة عالية هاتفا :

- على خلاف الآخر القليل الادب !

وهى تضحك أيضا :

- لا •• لا •• معذرة •• (ثم ملتفتة نحو سيد) ••

واعتبرت المسألة مفروغا منها لدرجة اننى فاتحت ماما فى

الموضوع ولكنها رفضت بشدة فكرة زواجى من مصرى !

صاح سيد عزت الذى أفقده لذة الحديث لذة الطعام :

- الزواج ١٩

- نعم •• وبسببك زعلت من ماما فأقمت مدة عند

خالتي ••

ابتسم سيد فى ارتباكهِ حياء وسرورا كما كان ينبغى أن

يفعل عام ١٩٣٠ واذا بعلى بركة يلكره فى ذراعه قائلا :

- ضيعت على فرصة دون أن تنتفع بها ، صدق من قال

ان رجال الحسابات مفعقون الى النهاية !

تمتم سيد عزت :

- لم أكن أعرف ! ، كنت يا مدام جادة جدا بصورة غير

مشجعة •

- هكذا نصحتنى زميلة لى فى ذلك الوقت بماى ستار ،

كانت يهودية مولودة فى مصر ، قالت لى ان المصريين يعشقون

لراة اللعوب ولكنهم لا يتزوجون الا المتحفظة !

صاح على بركة بقم مكتظ بالحمام :

– نعم النصائح اليهودية !

فخاطبت المدام سيد عزت قائلة :

– لكنك لم تتكلم ، حتى لم تحاول الكلام •

قال بارتياح :

– كنت دائماً أخاف من الافرنج !

– تخاف ؟ !

– نعم ، شيء قال لى انك مستحيل لانك افرنجية ، وكلما فكرت فى الكلام عقد الخوف لسانى •

على بركة وهو يضحك فى تهكم :

– مفهوم • • مفهوم • • اللائحة المالية لا تسمح بحب بين مصرى وافرنجية !

– وكان مرتبى محدودا وكانت فكرتى عن الحب أنه باهظ التكاليف !

قالت المدام وهى مهز متكيها :

– انتظرت حتى خجلت من نفسى ، ثم كان أن تعرف بى مسيو ماتياس •

فقال على بركة معاتبا :

– انتظرت الصامت وصددت المتكلم الفصيح ! •

انتهى العشاء ولكن الشراب لم ينته • وتجلت آثاره فى الخدود والاعين والألسن وارتفع الضحك •

وهتف على بركة بنبرة الظافر باقتراح سعيد :

– عندى فكرة !

فنظرا اليه مستطعين فقال :

– لترقص !

قال سيد عزت :

– لا أعرف الرقص •

وقالت المدام :

– ولا توجد موسيقى •

قال « لا يهم » وقدم لها ساعده فقامت ملببة ، وأحاط
خاصرته بذراعه وراحا يرقصان • وإذا به يضمها اليه حتى
التصقا تماما • حاولت أن تتخلص منه عبثا • وتساءل سيد
عزت فى ذهول :

– أى رقص هذا ؟ !

وقالت المدام فى اعياء :

– من فضلك •• عن انك ••

تمادى الرجل فى فعله وانعقدت فى عينيه نظرة مخيفة
فصاح سيد عزت :

– خذ بالك ! •• المدام تعبانة ••

فقال بحدّة :

– نحن هنا لا يدرى بنا احد !

– ابعد •• دعنى ••

وقام سيد عزت • وبقيامه تأكد من أنه ثمل حقا • وضع
يده على كتف الكهل الطويل وقال برجاء :

– على بيه ، اعقل ، لا تفضحنا !

فصاح به وهو يزيح يده بحركة من كتفه :

– اعقل أنت ، سيأتى دورك يا غبى !

وتأرخت المرأة مثالة فهتف سيد بغضب :

– دعها •• أقول لك دعها •• ألا تفهم ؟

وأمسك بذراعيه محاولا فكهما • جنبهما باقصى ما استطاع
من قوة • انضغطت المرأة بينهما حتى استشعر بضاضتها •

تراجع خطوة وهو يضاعف من قوة جذبته وقد لفحه خجل
آثم • وصاح على بركة بجنون :

– ابعد والا ٠٠

– ستوقعنا فى فضيحة !

وهتفت المدام :

– ساصرخ ٠٠ أقول لك انى ساصرخ !

ودار سيد عزت حولهما حتى وقف وراءه فقبض على عنقه وشده منه بلا رحمة حتى كاد أن يختنق فتراجع الى الوراء كالمتهاوى ٠ وترنعت المدام ثم انحطت فوق الكرسي مغمضة العينين ٠ ولم يعد يسمع الا لهائهم ٠ خلا كل الى نفسه يضمم جروح روحه ٠ المدام كالنائمة وعلى بركة مائل الى الجدار وسيد متقلص الوجه من الفتيان ٠ وقال على بركة بحقد :

– لن أدفع حساب أحد !

– مدت المدام يدها الى حقيبتها ولكن سيد عزت أمسك بها

بحنو وهو يقول له :

– لن يدفع لنا أحد ٠

ورجعوا الى الصمت والاعياء ٠ ثم خطرت لسيد فكرة فنادى الجرسون وقال له : « كاسان من فضلك » وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال له على بركة : « ثلاثة من فضلك » ٠ وشربوا هذه المرة وكأنهم يتداون ، فى صمت وبلا مرح ٠ وراح على بركة يقطع الحجرة ذهابا وجيئة ٠ ثم غادر الحجرة فغاب دقائق ثم عاد بوجه مفسول وأساير هادئة ٠ ونقل بصره بينهما ثم قال :

– دفعت الحساب ، كله ٠٠

فاحتج سيد عزت قائلا :

– لا !

– دفع وانتهى الأمر ٠

ثم بنبرة أرق :



وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال
له على بركة : « ثلاثة من فضلك » ..

- لننسى ما كان ، هذا خير ما نفعل .
وابتسم فيما يشبه الاعتذار . واقترب من سيد قائلا
« هات رأسك » ولثم جبينه قبل أن يقطن الآخر الى ما يريد .
وتحول الى المدام مخمضا : « وهاتى رأسك » ثم لثم جبينها
دون مقاومة من ناحيتها : وقال ووجهه لم يزل فى مستوى
وجهها :

- آسف يا مدام .. الصلح خير !
وفجأة لثم فاهها . ثم استقام متراجعا وهو يقول :
- قبلة الصلح ، وتحية للحلم القديم ، حلم تراءى لى قبل
موت سعد زغلول !

على ذلك غادروا المحل . وأمسك بيسراها داعيا الآخر
للامساك بيمنها وسار ثلاثتهم فى جو مائل للبرودة . والقمر
متوار وراء سحابة مفضضة . وتراءى الخلاء فى ظلام حتى
الأنوار المتباعدة الباهتة فوق المقطم كمقد من النجوم .
وضحك الرجل وقال :

- فلنتذكر أغنية جميلة يعرفها ثلاثتنا لنغنيها معا !

یومِ حائِیِیل

.. لا ..

قالها بحدة وهو يقطب ، ثم رشف رشفة من قدح الضاي
وركز عينيه فى القدح ليتجنب عيني زوجته ولكنها قالت
محتجة :

.. كنت متوقعة هذا الرد !

.. حسن ، لم لم تعفى نفسك منه ؟ !

.. لأن المرأة مسكينة حقا .

قال وهو يهز رأسه هزة الخبير بالعالم والناس :

.. شياطين خبيثاء .

.. اقرأ المريضة لملك تقتنع بانها مظلومة حقا .

.. قلت شياطين خبيثاء .

.. أنت تعلم أن زوجها وهب الوزارة عمره كله فلأسرته

حق فى المساعدة التى يجيزها القانون .

.. وهب الوزارة عمره ! .. ، اعلمى أن تسعين فى المائة

من موظفى الحكومة نباتات طفيلية تتغذى بدون وجه حق .

.. متى تغير باله من طبعك ؟

رمقها بنظرة باسمة باردة لا يمكن أن تثبت أملا فحل

صمت غير قصير ، ثم سألها بنبرة جديدة وهو يقوم عن

المائدة :

.. كيف حال الولد ؟

فلم تجب احتجاجا ، ولما كرر السؤال قالت باستياء :

.. نام ليله أمس نوما هادئا ولكن الحرارة ما زالت

مرتفعة .

واستقل سيارته وهو يأمر السائق قائلا « جروبى » .
 انطلقت السيارة تقطع الكورنيش مخلقة وراءها المصادى .
 وفتح الجريدة فتصفح العناوية الكبيرة بسرعة حتى استقر
 بصره فوق صفحة الوفيات . طالع أسماء الراحلين اما
 الأقارب فسكرتيره الخاص يتولى أمرهم . متى يطالعك اسم
 على كامل بالخط العريض ؟ . سوف تشيع جنازته بكل اجلال
 وتؤدي له جميع الواجبات ولكن متى ؟ . ذلك الرجل العنيد
 المصاب بتصلب الشرايين . وهو يعاندك ويتوهم أنه يحافظ
 على كرامته وكأنه لا يخشى قوتك التى يعمل لها كل انسان ألف
 حساب فمتى ؟ . كما قرأت يوما اسم حسن سويلم . فى مثل
 هذه الجلسة فى نفس السيارة فى نفس الطريق . يومها بدأت
 بالنظر فى صفحة الوفيات فكان اسم أول ما وقع عليه
 بصرك . البقاء لله . . حسن سويلم . . مراقب عام الايرادات.
 متى يا على كامل ؟

— انظر أمامك !

صاح بالسائق بعنف فحول الرجل عينيه بسرعة عن أسراب
 حمام تطير فوق سطح النيل كسحابة بيضاء . واكفهر وجهه
 لحظات ثم انبسطت صفحته رويدا . آخر مشباحنة جرت بينك
 وبين المرحوم حسن قبل وفاته يشهر . يا حسن بك . أنا الذى
 يقرر متى يجب تقديم مشروع الميزانية . ولكن ذلك من ضميم
 اختصاصى يا كريم بك . آه . . لا تضطرنى الى سحب العمل
 من يديك . . أنت ثمرفتى جيدا . إذن اسمح لى أن أحتج على
 هذه المعاملة فلست أنا بالموظف الصغير . لو امتد به الأجل
 لكان اليوم منافسك الأول دون منازع . ولكن الجسم الفاسد
 لا يخلو من دماغ . ها هو على كامل ذو الشرايين المتصلبة ؛
 ماذا يريد ؟ .
 وقفت السيارة أمام جروبى فغادرها ثم نخل المحل .

أجال بصره فى أنحاء المكان حتى رأى الأستاذ على قمضى اليه
ثم صافحه بحرارة قائلاً :

- صباح الخير ، تهانى على مقالتك الأخيرة •
- اعجبك حقاً ؟

كرر اعجابه وهو يجلس • وطلب قهوة وهو يبتسم
ابتسامة ذات معنى فقال الأستاذ :

- الظاهر أنك وقتت ٥٥ ؟

دس يده فى جيبه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ
وهو يقول :

- قنبلة العام !

- حقاً ؟

- سوف تنفجر تحت أقدام نسيم البحيرى المافون المغرور •

- أنت متأكد من صحتها ؟

- وثائق لا يرتقى إليها شك •

- لا أريد أن أعرض الجريدة لقضية خاسرة !

- الله يعلم كم كلفنى الحصول عليها من حيلة ومال •

- ان لم تقض على البحيرى فستقضى على !

- ستقضى على البحيرى وحده •

تبادلا نظرة طويلة ثم قال كريم :

- سيكون نصراً للجريدة !

- ولك أنت •

ضحك كريم ضحكة أضخم بكثير من جسمه النحيل الدقيق

فتمتم الصحفي باسم :

- أنت رجل جبار حقاً !

- أنا رجل مستقيم ونظيف فلا يهمنى أن أرمى بعد ذلك

بالقسوة •

وقرأ فى عيني الصحفي نظرة لم يفهمها تماماً فقال :



دس یدہ فی جیبہ الداخلی فاخرج مطروفا سلعمہ للاستاذ

- أنت أيضا تكرمه .
- سأنشر الوثائق للمصلحة العامة ولا دخل لعواطفى فى ذلك .
- حسن وأنا أخدم المصلحة العامة بطريقتى كذلك .
- وقام مادا له يده فصافحه وهو يسأله عن صحة ابنه فقال وهو يمضى عنه :
- لا بأس به ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة ، شكرا لسؤالك عنه .
- استقل سيارته الى مكتب الأستاذ يوسف عبد الرحمن المحامى الذى استقبله بترحاب وهو يقول :
- مبارك يا كريم بك ، قرأت اسمك أمس بين المرشحين .
- شكرا يا عزيزى ، خبرنى عن جلسة أمس .
- تأجيل لتقديم مذكرات .
- وماذا عن مركزنا ؟
- عال جدا ، أنا مطمئن كل الاطمئنان .
- اذن سيركح فهم الدسوقي ؟
- أجل ، ولكن ثمة جديد .
- ما هو ؟
- قال المحامى بصوت أخفض درجة :
- تلويح بالصلح !
- صلح !!
- لفظها كناية فقال المحامى :
- سوف تحترم شروطك بطبيعة الحال .
- ولو !
- وهو على أى حال ابن عمك .
- هذا مجرد للعداوة .
- اهذا هو رأيك الأخير ؟

— حتى النهاية •

• وذهب الى مكتبه بالوزارة ثم طلب فى التليفون رقما •

— آلو ٠٠ على ٠٠٩ صباح الخير •

— •

— عندي لك خبر مهم جدا ••

— •

— اقرأ غدا صحيفة الكوكب •

— •

— نسيم البحيرى قضى عليه الى الأبد •

وضحك طويلا حتى ارتجت لضحكه أركان الحجرة الكبيرة

الصامتة • واستقبل مدير مكتبه الذى عرض عليه البريد

وبعض الموضوعات العاجلة • وجاء على أثره على كامل

فتبادلا الآراء فى مسائل شتى ووجهاهما يعكسان برودا

سافرا • وعندما وقف على كامل استعدادا للذهاب سألته كريم

بدافع شيطاني مباغت :

— كيف الصحة ؟

فأجاب الآخر فيما يشبه التحدى :

— لم تكن شرايبنى فى وقت من الأوقات خيرا مما هي

الآن •

• عنيد مكابر كذاب • وجهك الشاحب المتقنصن يفضحك •

وعما قليل ستعتذر عن تخلفك الاضطرابى عن اجتماعات

المساء • على كامل ، البحيرى ، الدسوقي ، وعشرات غيرهم •

كائنات نخرها السوس فلم يبق منها الا على عناد وحقد •

انت بحاجة الى مدفع سريع الطلقات لتطهر منهم الحياة •

وسوف تنتصر كما انتصرت دوما • حياتك سلسلة من المعارك

متوجة بالانتصار • فى ذلك متعتك وكرامتك فى الحكومة أو

النادى أو القرية • منذ نشأتك الاولى وأنت مناضل كأنك تعيش

فى حلبة ملاكمة • النضال هو روح الحياة وسرها أما القيم
المعسولة الخرعة فهى آفات الحياة • والرجال يضمرون لك
اعجابا لا حد له وأن رددت ألسنتهم خلاف ذلك فعن خوف أو
حسد • حتى الوزير نفسه استدعاه يوما وقال له :

— يا سيد كريم لماذا تثير الزوابع دائما ؟

فتساءل بأدب واعتزاز معا :

— سيدى الوزير هل أنا رجل صالح للعمل ؟

— لم أظن فى ذلك أبدا •

— ونظافتى ؟

— على خير ما يرجى •

— وعند الخلاف مع الآخرين أين تجد سيادتكم الحق ؟

— ولكنك تغالى فى العنف حتى لينقلب الوضع فكأن الحق

مع خصمك •

— هكذا خلقنى الله !

فقال الرجل بنبوة لم تخل من ضجر :

— حتى العنف فى الحق يجب أن يقف عند حد •

وعند الظهر رأس اللجنة المالية • وتفانى فى العمل كمادته

فلم يبال بالوقت • ومرت ساعتان عقب وقت الغداء وهو

يختلس من حين لآخر النظر الى الوجوه المتعبية المتألمة ،

ويترى بكلمة تدمر أو شكوى • وفى صدره لعبت عواطف

ماكرة كشفاوة الأطفال • ولما أشبع طاقته فى العمل والتعذيب

فض الجلسة • واتصل بزوجته بالتليفون فسألها عن الولد :

— لا بأس به ولكنى استدعيت الطبيب لأن الحرارة لا تريد

أن تنخفض •

— بخير أن شاء الله لن أعود قبل العاشرة مساء بسبب

العمل !

وفكر فى مسألة مرض الأطفال وهو يتناول غذاءه

بالتنادى • قال ان الأطفال ما كان يجب أن يمرضوا على الإطلاق • المرض - إذا لم يكن منه بد - فهو ظاهرة تطرا على الجهاز البشرى عقب طعونه فى السن أما الطفل فلا يمرض الا لخلل فى الكون • وقد كان - هو - سليما عند الزواج كما كانت كذلك درية زوجته ، وولد رمزى آية فى الصحة والجمال فما معنى المرض إذن ؟

ومضى الى حجرة التليفون فانبسطت أساريه لأول مرة ،
لأول مرة سرت ابتسامة فى غضون الوجه الصارم الكالـح :
- ألو •• هنومة ؟ •• كيف الحال ؟

- •••••

- عال ، هذا يعنى أنه لن يعود اليوم ؟

- •••••

- إذن نتقابل فى السابعة ؟

- •••••

- اعملى حسابك على ساعتين على الأقل ، الى اللقاء

يا محبوبية !

واستقل السيارة وهو يقول للسائق « بار الأنجلو » ،
سيمكث هناك ساعة ثم يمضى الى هنومة • امرأة مثالية فى غرامياتها • وزوجها البدين يتوهم أن البدانة يمكن أن تجعل من رجل زوجا موفقا • وهو يجيء الى بار الأنجلو فينهمك فى لعب الطاولة مقامرا بمبالغ ضخمة ، ومرة قاوم اغراء غربيا بصفحه على قفاه • أما البحبرى فموعه الفد • سوف يصعق عند مطالعة الجريدة وإذا انتحر فسيثبت بانتحاره أن سوء ظنه به لم يكن صوابا على طول الخط • واضطر السائق الى ركن السيارة فى آخر الطريق عند أول موضع خال فغادر السيارة ليتم طريقه مشيا على الأقدام • سار فوق الطوار بجسمه النحيل الدقيق يطالع الدنيا بوجه صارم شبه متقزز -

وتمر بعمل لبيع التحف اليابانية فدخله دون سابق تفكير
 لايتباع هدية لهنومة • اختار شيشيا مناسبا تماما للاستعمال
 في مسكنهما السرى بالهرم • وواصل مسيره نحو البار •
 وعند أول منعطف قبل القبي • وعقب نزوله من الطوار
 مباشرة ، وجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول فتراجع بسرعة
 هاتفا : يا ولد با كلب • • كان الغلام يبول فى علانية
 استعراضية ، وشقاوة وشت بسروء بما يفعل • وقد انطلق
 البول مثلاكنا تحت أشعة الشمس فى هيئة قوس والغلام يدفعه
 بحركاته الذاتية الى أقصى مدى يستطيعه • تراجع كريم بك
 فى شبه فزع فزلت قدمه فهوى على ظهره فارتطم مؤخر رأسه
 بحافة الطوار • دعر الغلام فولى هاربا • ووقف المارة
 القريبون ليشاهدوا الحدث الغريب وهم بين الرثاء والابتسام
 ولكن كريم بك استلقى فى اغماء لا شك فيه • وهرع اليه بعض
 ذوى النجدة ليسعفوه • وارتفع من بينهم صوت هاتفا :
 - يا لطف الله ••• الرجل جثة هامدة !

الفهرست

صفحة

٢	قبيل الرحيل
١٤	حلم نصف الليل
٢٧	قرس قزح
٣٩	السميت
٥٢	بيت مسيء السمعة
٦٥	القوة الخالية
٧٧	كلمة في السر
٨٧	الخوف
١٠١	الرماد
١١١	الختم
١٢١	سوق الكانتو
١٣١	وجهها لوجه
١٤١	الهارب من الاعداد
١٥٢	سائق القطار
١٦٥	لونا بارك
١٧٧	موجة حر
١٨٩	عابرو السبيل
٢٠٢	يوم حافل

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الأولى

١٩٣٢	(مترجم عن الانجليزية)	مصر القديمة
١٩٣٨	(مجموعة أقاصيص)	همس الجنون
١٩٣٩	(قصة تاريخية)	عبث الأقدار
١٩٤٣	(")	رادوبيس
١٩٤٥	(")	كفاح طيبة
١٩٤٥		القاهرة الجديدة
١٩٤٦		خان الخليلي
١٩٤٧		زقاق المدق
١٩٤٨		السراب
١٩٤٩		بداية ونهاية
١٩٥٦		بين القصرين
١٩٥٧		قصر الشوق
١٩٥٧		السكرية
١٩٦١		اللعن والكلاب
١٩٦٢		السمان والخريف
١٩٦٣	(٦ قصص قصيرة)	دنيا الله
١٩٦٤	(رواية)	الطريق
١٩٦٥	(٢ قصص قصيرة)	بيت سيء السمعة
١٩٦٥	(رواية)	الشحاذ
١٩٦٦	(رواية)	ثرثرة فوق النيل
١٩٦٧	(رواية)	ميرامار
١٩٦٩	(قصص قصيرة)	خمارة القط الأسود
١٩٦٩	(قصص قصيرة)	تحت المظلة
		حكاية بلا بداية ولا نهاية
١٩٧١	(قصص قصيرة)	

الطبعة الأولى

١٩٧٨	الخامسة	»	١٩٧١	(قصص قصيرة)	شهر العسل
١٩٧٨	الثالثة	»	١٩٧٢	(رواية)	المرايا
١٩٧٨	»	»	١٩٧٣	(رواية)	الحب تحت المطر
١٩٧٨	»	»	١٩٧٣	(قصص قصيرة)	الجريمة
١٩٧٨	الثانية	»	١٩٧٥	(شخصيات ومواقف)	حكايات حارتنا
١٩٧٨	»	»	١٩٧	(رواية)	قلب الليل
١٩٧٨	الثالثة	»	١٩٧٥	(رواية)	حضرة المحترم
١٩٧٨	»	»	١٩٧٤	(رواية)	الكرنك
			١٩٧٨	(رواية)	الحرافيش

دار مصير للطباعة
تغير مودة السحر وشركاء
٢٧ شارع كامل صندوق - الدجالة
٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

رقم الايداع ٥١٦٢ / ١٩٧٨
التزقيم الدولي ٠ - ٣١٨ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كائن صدق - الجيزة



الشمس قرشا

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه